التاروتي والسبع صنائع

سلمان العيد

الرواية مأخوذة من واقع الحياة المعيشية في فترات معينة في
جزيرة تاروت، وكل شخصياتها من نسج الخيال

ـ 1 ـ

حياتي مليئة بالجهد والعرق ، والتعب والأرق ، لأني طالما دأبت أنشد النجاح ، وأبحث عن الانجاز ، بمالي وجسدي وعقلي وكل جوارحي ، أخطب ود الرقي والتطور والنمو ، لذا لم تكن أيامي تخلو من نقاط فشل ذريعة ، ومواقف إخفاق تتجلى من خلالها الحقيقة التي يهرب منها الكثير من بني آدم ، وهي أن الحياة مرادفة للتعب والشقاء ، تلك الحقيقة التي تظهر بكل عناوينها في في لحظات وساعات حياتي ، فالكل يبحث عن الراحة والسعادة فلا يطالها ، ولا يصل إليها ، وإن رأى بعض معالمها على غيره ، ظانّا بأن صاحبها سعيد وعلى قدر كبير من الراحة ، فـ"راحة الا في القبر"! .

تلك قصة حياتي بل قصة مماتي الحي ، وحكاية رجل ميت الأحياء ، أوالحياة الميّتة ، التي تتجسد أجلى مظاهرها في يومياتي المتناثرة على صفحات خيالي ، لم أشأ سردها على الورق ، ربما لم استطع عرضها في وقت ما ، لكن وزرها وأخطاءها ، والمواقف التي انطوت عليها تلح عليّ ، وتفعل فعلها في عقلي ، وتتلاطم أمواجها في بحر خيالي ، وتسرى من مكان إلى آخر في نهر شعوري المتدفق بالحزن والألم ، هذا الشعور الذي يكاد يقتلني بذكرياته ، ويفتك بي بأزماته ومشكـــــــــــــلاته ، فأزمة تولد أزمة ، ومشكلة تخلق أخرى ، وقضية تلاحق أختها ، والحياة دولاب كبير ، يتحرك ويتسع للملايين من البشرالتي تكد وتكدح ، ثم تتوقف ، وتنتهي بها المسيرة ، ومن مات قامت قيامته ، ومن عاش فلن تطول وفادته ، وهذا هو حال الدنيا ، قصة تبدأ بعض فصولها وتنتهي ، تبدأ لدى شخص وتنتهي لدى آخر ، فمن ولد بدأت حياته ، ومن مات انتهت حياته ، وانتهى دوره في الدنيا ليبدأ حياة أخرى الحاكم فيها

رب العالمين ، وقد ورد في الأثر :"أن الناس نيام إذا ماتوا أنتبهوا" ، فأنا ـ وغيري ـ مازلنا نياما ، ننتظر أن نموت كي ننتبه ، لنعرف حقيقة عبثية هذه الحياة ، وأنها لهو ولعب وتفاخر بالأموال والأنسان ، ولا تساوي عند الله ورقة في فم جرادة ، فكل نعيمها زائل وكل أيامها إلى الأفول .

تلك خلاصة قصتي ، أنا "سعيد بن سلمان بن حسين التاروتي" هكذا أسمتني إمي ، ولم أسألها لماذا أسمتني بهذا الأسم ، ولا يحق ـ ولم يكن بمقدوري ـ أن أسألها ، فهذا جزء من حقّها بأن تسمي إبنها بما تحب ، بل من حقّي عليها أن تحسّن إسمي ، فجزاها الله خيرا على هذا الأسم الجميل . . ولدت في جزيرة تاروت ، هذه الجزيرة الواقعة في قلب البحر ولم تغرق ، بل أن علاقتها بالبحر علاقة حميمة ، لطالما كان يوليها كل اهتمامه وحرصه ، هذه الجزيرة منذ أن عرفتها وعرفتني وتنفست هواءها وعشت في ثراها ونعمت بما تحويه زقاقاتها ، وشربت ماءها ، هي الجزيرة لم يطلها طوفان الحقد ، ولم تسيطر عليها شعوبية الجهل ، ولم تصلها بعد البراكين والزلازل ، كغيرها من بلاد الدنيا ، فالحالة البحرية طالت العشرات من أهلها ، في فترات ما قبل ظهور الذهب الأسود ، غاص اهلها البحر طلبا للؤلؤ المكنون في شاطئها ، فتأثروا بتلك البيئة ، فتجد الواحد ممن يقطن هذه الجزيرة"بحريا" ظاهره جميل وباطنه يحمل الكثير من المعاني والتناقضات ، من الخير والشر ، فاللؤلؤ الموجود في باطن البحر ، تجده اشباهة موجودا في قلوب ونفوس وأوراح أهل هذه الجزيرة التي تزداد جمالا وروعة بأهلها وقاطنيها .

الحالة البحرية لم تقف ـ وللحق ـ على أجيال ما قبل النفط ، بل أن أجيال ما بعد النفط ، لم تكن علاقتها بالبحر علاقة جفاء ، بل علاقة مودة ومحبة وألفة ، فهم أيضا بحريون ، يحملون من البحر طيبته وبعض غدره ، جماله وبعض تناقضاته ، عدا أنهم جميعا يحملون كرم البحر والعطاء بلا منّة ، والطيبة بدون غباء ، فالبحر كان يعطي اللؤلؤ ، وما توقف عن عطائه من الأسماك والأحياء البحرية ، وهو بالأمس واليوم وغدا وبعد غد وإلى أن تقوم

الساعة ما فتأ يغذي الذوق ويبعث الروح العاشقة للجمال ، لذا لا استغرب حقا إذا افرزت هذه الجزيرة العشرات بل المئات من الشعراء والأدباء والفنانين ، فالجمال في هذه الجزيرة يولد كل يوم ، وتتوسع مفاهيمه ومعانيه كل ساعة ، وكل لحظة .

أنا لا أخفي على أحد ، بل أقّر واعترف بأنني ـ كغيري من اهالي جزيرة تاروت ـ أحمل صفة الإنسان الـ"بحري" ، وإن عملت في مهن وحرف غير البحر ، وربما كان ظاهري سعيدا مثل إسمي ، لكن باطني يحمل من السعادة الشيء الكثير ، ومن الشقاء الشي الأكثر ، تلك أهم صفات الإنسان البحري ، وأجدها ـ بدون جزم ولا إصرار ـ من صفات كل تاروتي ، وتلك هي معادلة الحياة اليومية في جزيرة تاروت ، التي لا استطيع الهروب منها وإن سعيت وبذلت جهدي ، فأنا بحري في إسمي ، وبحري في رسمي ، واعترف بكل ما يحمله البحر من تناقضات ، من مد وجزر ، من عطاء وجفاء .

ولأني خرجت الى الحياة في هذه الجزيرة ، ولأن اجدادي من هذه الجزيرة الطاعنة في السن ، صرت "تاروتيا" ولقبت بـ "التاروتي" ، وأسموني بـ "سعيد التاروتي" فلا أنا "سعيد" بما تعنيه السعادة بمعناها الأعم الأشمل ، ولا أنا "تاروتي" بما تعنيه كلمة "تاروت" ، من النقاء والزهو ومعانقة التاريخ ، ولكن هي الأقدار جاءت بهذه الصورة ، ولم أكن اسائل نفسي ـ كغيري ـ لماذا سميت "تاروت" بهذا الإسم ، وأظن أن البعض يعرف ، والبعض ـ مثلي ـ لا يعرف ، ولم يجد أويجتهد لكي يعرف ، ولم يقرأ من كتب التاريخ والتراث ما يعينه للوصول الى هذا المعنى . . فقديما قالوا "لكل واحد من اسمه نصيب" ، فمن كان أسمه "سعيدا" مثلي فربما كانت حياته سعيدة ونال نصيبا من إسمه ، تلك مقولة لا أجزم بها ، ولا أرفضها ، فأنا سعيد بإسمي ، وسعيد بأرضي وأهلي ودِيني ، ولكنني غير سعيد بحياتي ، وغير سعيد بشقائي وجملة معاناتي ، وما أحمله من أمل ومن إخفاقات ونقاط ضعف ، تجعلني غير سعيد في بعض الأحيان ، فظاهري سعيد ، وباطني به الشقاء والسعادة ، فأنا ـ كما

قلت ـ مثل البحر ، ظاهره جميل وباطنه ينطوي على الجمال والثروة من جهة ، وكذلك الخطر والموت من جهة أخرى . لكنّي ـ وبكل ثقة ـ أنا سعيد لأني تاروتي!

وفي كثير من الأحيان تراودني اسئلة حائرة ، حول هيمنة البحر على العقل ، وسيطرته على السلوك ، كيف انتقلت الى الفلاح ، فإنا بحري وإن عملت فلاحا أو تاجرا ، او مقاولا ، أو محاميا ، فالـ "بحرية" هنا لا علاقة لها بالمهنة ، وإن كانت كل مهنة تعطي صاحبها بعضا من صفاتها ، لكن البحر يشمل الكل بخيره وشرّه أيضا ، فمن غاص البحر نعم بخيره ، ومن جلس على الشاطيء لم يتركه البحر لوحده ، بل جعله يحلق في عالم الخيال ، وعالم الملكوت ، ويتدبر في قدره الله ، فنقله إلى عالم آخر ، فكانت العبودية ، وأفضل العبادات التفكر ، وهذا من عطاءات البحر حتى لمن هو كسول جالس على الشاطيء!

تلك ابرز صفاتي ، اني بحري!

حين أتحدث عن طفولتي ، فهي خليط من المعاناة والآهات السعيدة . . نعم "آهات" لكنها في الوقت نفسه "سعيدة ، كونها بعيدة عن كل أجواء العقد التي يعيشها الكبار ، والأمراض والمشاكل التي تأتينا ممن يكبرون في أعمارهم ويصغرون في عقولهم ، وتزداد كلما طالت مدة حياتنا ، فأنا ما فتأت أسمع الداعي في شهر رمضان في دعاء أبي حمزة الثمالي إذ يقول "مالي كلما طال عمري كثرت خطاياي ، فكم أتوب وكم أعود أما آن لي أن استحي من ربّي" ، والذي أفهمه بأن الأخطاء لا تأتي من الصغار ، وإنما من الكبار ، لذا طفولتي عنوان الطهارة والنقاء ، لكني ، ورغم مافي طفولتي من نقاء ، فإنني أقف عندها كثيرا ، وأتذكرها كثيرا ، وأبكي عليها كثيرا ، وربما أضحك من تفاصيلها بعض الشيء ، فهي طفولة مسترجلة ، وبها أحداث كثيرة ومتعددة ، غلب عليها الجد والاجتهاد منذ بدايتها ، وسادت في معظم فتراتها القسوة التي لا يتصف بها

الأطفال ، لذلك فهي طفولة لكنها بمعنى الرجولة ، وهنا تتجسد الصفة البحرية الأخرى ، حيث أن البحر مثل الطفل تجده هادئا ساكتا ، لكنك لا تعلم ماذا يجري بداخله ، فربما ولدت براكين وزلازل من المشاعر ، مشاعر الود والحقد ، لدى الطفل ، فالأمراض تولد لدينا ونحن أطفال .

تعلمت معاني الرجولة وأنا طفل يافع ، فأنا عشت حياة مغايرة تماما لحياة كل أبناء جيلي ، رغم أننا جميعا أطفال ، ويفترض أن تكون مسيرة حياتنا واحدة ، أو متشابهة على أقل التقادير ، فليس من العدل ولا من الصحة أن طفلا يعمل في الصباح ، وطفلا آخر يلهو ويعبث ، لكن كل شيء يمكن أن يحدث في حياتنا الدنيا الناقصة ، فالعدالة منقوصة ، والتساوي بين بني البشر محدود أو شبه معدوم ، فقد خلقت الحياة بهذه الصورة ، فيها البائس المعدم والغني المترف ، هذه طبيعة الحياة لا يمكن لنا أن نغيّرها بالكامل ، وأقصى ما نسعى إليه أن نصل إلى درجة معينة من العدالة ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فالطفولة الغراء الهادئة ، المليئة باللهو والمرح لم أعرفها ، ولم تمر أحداثها على تفاصيل يومياتي الطفولية ، فلم أعشها كما عاشها غيري من أبناء جيلي . .

كان كل شيء في حياتي كان يسير مبكرا ، استيقظ مبكرا ، وأنام مبكرا ، والقسوة جاءت مبكرة ، والرجولة دخلت في كياني وفي عمق أحاسيسي قبل وقتها وقبل أوانها ، سبقت أقراني في المعاناة ، وتجاوزتهم في تحمل المسؤولية ، حملت العبء في وقت كانوا كلهم يلعبون ويدرسون ، لعقت المر والصبر والشقاء ، بينما كانوا في أبهى حلة وافضل معيشة . . هذه المقارنة لم تأت بدافع الحقد ، ولا الغيرة ، بقدر ما هي توصيف الحال ، والتوصيف يحمل في ذاته ـ غالبا ـ صفة المعاناة ، التي تلقى بظلالها وضلالاتها عليه . .

ترعرعت في بيئة قاسية ، لا تعرف معنى للهدوء والسكنية ، ولا الراحة والرفاهية ، قمت بمهام وأعمال شاقة ، جعلت للشباب والكهول ، لذلك دخلت

غمار الصنائع بمختلف أشكالها ، فتعاملت مع الأحجار والأشجار ، ورعاية وتربية الأغنام ، كلها ليست من مهام الأطفال ، ولا هي من صميم عملهم ، ولا يقدرون على شيء من ذلك ، هي مهام لا يقوم بها سوى الرجال من ذوي أعمار العشرين وما فوق ، ممن فتلت عضلاتهم ، وتفتحت عيونهم ، وانطلقت قدراتهم الذهنية والجسدية ، وصاروا مكلّفين بتحمل المسؤولية ، وصاروا محاسبين أمام ربهم عن كل شيء يصدرمنهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" ، تلك القاعدة الإلهية تطبق على البالغين الكبار ، لا على الاطفال الصغار ، لكنها ـ وبكل قسوة ـ طبقت على صبي من صبيان جزيرة تاروت ، يدعى سعيد بن سلمان التاروتي .

إن هذا الصبي ـ وهو أنا ـ وفي سنواته الأولى دخل نطاق العمل ، وتلك لعمري بداية مبكرة جدا لعلاقة حميمية مع الشقاء ، ليغرق في وحل المعاناة التي يبكي منها البعض ، ويفتخر بها البعض الآخر ، لكنها تبقى ـ على كلا الحالين ـ معاناة ، ومسؤولية وجهد بدني ونفسي لم يأت في وقته ، وتنطوي على دروس كثيرة ينبغي أن تنقل إلى الاجيال . . وفي الحقيقة التي لا مفر منها إنني ومنذ طفولتي لم أتعامل ـ في البداية ـ بشكل مباشر مع البشر ، عدا والدي ووالدتي وإخواني ، وإنما كان معظم وقتي الطفولي ونشاطي منذ نعومة اظفاري كان مع الكائنات الحية ـ من غير البشرـ فقد أدمنت ركوب النخلة ، وأنا لّما اكمل العشر سنوات ، إذ امتطي تلك النخلة بوسيلة الركوب لها ، وما نسميه بـ "الكر" من بداية الموسم وحتى نهايته ، وبمعدل يومي ، فالنخلة أعالجها اليوم ، وأعالج غيرها غدا ، وذلك حسب مراحل الدورة الزراعية الخاصة بإنتاج البلح (الرطب) ، ففي البداية اتسلق النخلة من أجل إزالة ما يعتريها من ليف وكرب وشوك ، وهو ما يعرف بـ"التكريب" أو"الترويس" ، ثم تأتي المرحلة الثانية وهي إعداد النخلة للإثمار ، أي تقديم النخلة للزواج ، وزواج النخيل يتم ايضا باحتفال كبير ، حيث نقوم نحن ـ النخلوية او النخلاوية ـ بعملية تلقيح الثمار فننقل "حبوب اللقاح" من النخيل المذكرة (الفحل) ، ونجعلها تتعانق مع زهرة

النخيل المؤنثة ، التي تتحمل المسؤولية كاملة فيما بعد هذا الزواج الشرعي ، فهي (النخلة) المؤنث ـ بعد هذا التزاوج ـ تعطي الثمار ، ويتعامل النخاولة معها طوال العام ، في حين يبقى النخل "الفحل" صامتا بلا دور معظم أيام السنة ، الا إذا جاءه عابث من بشر أو حشر ، هذه هي الحالة الذكورية التي يعاني منها البشر ، وتصضهد بموجبها النساء نراها قائمة بقرار الطبيعية في النخيل ، فالفحل (أو الفحّال) لا يؤدي دورا سوى أن حبوب اللقاح يتم نقلها منه ، بفعل البشر ، وأحيانا بفعل الرياح (وجعلنا الرياح لواقح) . . ثم تأتي مرحلة ثالثة وهي "التحدير" أي تنزيل الثمار ، حتى تكون في متناول اليد ، وتكون جاهزة للقطف خلال فترة الإنتاج ، حيث تستمر هذه العملية طوال فصل الصيف الذي لا يرحم أحدا بحرارته ، ولا يترك أحدا برطوبته ، ثم تأتي اخيرا مرحلة "الصرام" وهي تنزيل ما تبقى من الثمار إلى الأرض ، بعد انتهاء الموسم ، إذ لم لم يعد صالحا للأكل كرطب ، ليؤكل تمرا ، أو يحال إلى أن يكون علفا تأكله بقية مخلوقات الله الحية ، أو ما يسمى لدينا في تاروت بـ "الحشف" ، أو يحال إلى مواقع لإنتاج عسل التمر .

إن علاقتي مع النخلة بحسكها وجذوعها وعراجينها وثمارها علاقة شخصية ، أعانقها كل يوم ، وكل يوم لدي حديث خاص معها ، وفي فصل الصيف هي التي تطلبني ، وتدعوني لضيافتها ، فاستجيب لتلك الضيافة ، واقطف ما تقدمه لي رطبا جنيا ، للأكل والبيع والضيافة وربما للعلف ، أتقبّل هداياها بكل صدر رحب ، وهي تستقبلني بدون اعتراض ، وبدون رفض ، لله درّها من شجرة مسالمة ، تعطي بلا حدود ، وتقف شامخة أمام كل شيء سلبي ، فهي تحارب الغبار ، وترفض الرياح القاسية وتقاومها ، وفوق ذلك فهي رفيقة بأهل الذوق والجمال ، والشعراء والأدباء ، وفي الوقت نفسه لا تقبل الضعفاء وذوي الصفات المخملية الناعمة ، فمن يأتيها بهذه الصفة قد تغدر به ، أنها والله مثل البحر تعطي بلا منّة ، ولكنها لا تقبل تقديم العطاء بدون جهد ، ولا تتفاعل مع الفئات التي دأبت على الراحة ، ذوي البنية المرهفة الضعيفة ، ولعلي هنا أتذكر أول يوم صعدت فيه النخلة ، وكانت قصيرة جدا ، لم أستطع

بلوغ منتصفها ، حتى سقطت من الخوف ، فكان "الكر" حاجزا لي ، فجعلني أصطدم بوجهي بجذع النخلة الصلب ، وما أن وصلت الى الأرض إلا وأنا مخضب بدمي ، من أكثر من مكان ، من جروح وخدوش من فمي ، وأنفي ، وعيني ، لكنها حالة واحدة ، بقيت ماثلة في الذاكرة لا تتغير ، ولا تأخذ منها عوامل التعرية والنسيان شيئا ، فأنا كنت ضعيفا صغيرا جاهلا بطريقة التعامل مع النخلة ، فكان هذا هو مصيرى ، ولكن بعد هذا الموقف ، فهمت القصة وآلية التعامل مع النخلة ، لذلك صارت تتحدث لي وتخاطبني ، وترحب بي ، كيف وأنا من يعتني بها ، ويرفض أي عبث خارج النص بحقها ، وأن أي شخص يريد العبث لا يمكنه الوصول إلى نخلة من نخلاتي ، حيث سيكون مصيره أسود مثل سواد الليل ، كما أني لا أسمح لأي طير جارح بأن يأخذ له عشا عند النخلات التي تحت سيطرتي ، ولا الحيوانات والقوارض باستطاعتها أن تصل ، فهي لا تبحث إلا عن النخلة الوسخة التي بدون راع ، اما النخلة النظيفة لا يقصدها سوى العصافير والبلابل وحمام النخيل (الفواخت) ، وكلها طيور جعلت رسلا للحرية والسلام ، تأتي للنخلة ليس بهدف الاستعمار والإقامة الدائمة ، وإنما لأخذ نصيبها المكتوب لها من الرطب ، بدون عبث وتخريب ، بعكس القوارض والسوس والحشرات ، وسبحان الخالق ، أن جعل بعض المخلوقات نظيفة تبحث عن المكان النظيف ، فهي طاهرة بكل ما فيها (مثل البلابل والعصافير والحمام) ، وهناك حيوانات نجسة العين ، وسخة الملمس ، قبيحة الشكل والمنظر (مثل الفئران والقوارض . . .الخ) ، وسبحان من خلق وفرّق ، فالنخلة النظيفة يقصدها المخلوقات النظيفة ، والنخلة غير النظيفة هي مأوى لكل حيوان على شاكلتها .

تلك صفات عمتي النخلة ، وقصة علاقتي بها ، ومعاناتي معها ، ففي حال وجد الرطب في عراجين (عذوق) النخلة ينبغي على هذا الطفل الغض الصغير الهزيل ، لأن يقوم بنفسه بعملية الصعود وجني الرطب منها ، ووضع ذلك المحصول في السلة المخصصة لذلك والتي تدعى «المخرفة» ، ويحملها على رأسه أثناء الصعود والهبوط من وإلى النخلة ، ويذهب بها الى الزبائن

والعملاء ، فهو يذهب إلى دارين مشيا على الأقدام إلى مسافة 3 كليومترات ، ودارين هذه هي واحدة من شقيقات تاروت أضافة إلى (الربيعية وسنابس) ، والجامع بينهما في النطاق الجغرافي جزيرة تاروت ، التي ننتسب إليها كلّنا ، ورغم الحميمية في العلاقة الاجتماعية مع دارين الا أن الوصول لها لا يتم في كثير من الأحيان في ظروف مواتية ، إذ ان الطريق يغرق بماء البحر مع بداية ومنتصف ونهاية كل شهر هجري تصل الى عنق الطفل ذي السنوات العشرة الأولى ، الذي عليه أن يعبر ذلك البحر ، وعلى رأسه المخرفة ليصل الى دارين ، ثم يأتي العصر في الظروف نفسها ، وعلى الطريق نفسه ، وبعد ذلك التعب عليه أن يعد العدة ليوم الغد ، أي صعود النخلة وتعبئة تلك السلة (المخرفة) وتجهيزها ، تمهيدا لنقلها وبيعها في دارين وغير دارين ، حيث أن أهالي دارين لا يتعاملون ـ في الغالب ـ مع النخيل ، وإنما هم أهل صيد وأهل بحر ، بحكم متاخمة بلدتهم للبحر ، واقترابها الكلي منه ، فكل من يولد في دارين ، لابد وأن يكون صيادا ، او عاملا في نشاط له علاقة مباشرة بالبحر ، لذلك فحاجتهم من التمر والرطب تأتي من الشقيقة تاروت المجاورة ، تلك من حكمة الله أن جعل التكامل بين الأمم والشعوب ، كذلك بين القرى والمدن ، لذلك فالرطب والتمر مستمر للوصول الى دارين ، ولكن العقبة المؤقتة التي تأتي خلال بداية ومنتصف ونهاية كل شهر ، اتخطاها بكل ما أوتيت من قوة ، والحمد لله .

ويحدث في بعض الأيام أن أقوم بنقل كمية من الرطب الى إناس في منازلهم ، ويتم حساب ذلك عن طريق "عصا" يابسة من جريد النخل ، نسميها "الفرض" نقوم بأخذ جزء صغير منها ، في كل مرة يتم تزويد المستحقين بالرطب ، فهذه العصا بمثابة الدفتر ، الذي من خلاله يثبت أن العملية قد تمت ، وإن "مخرفة" الرطب قد وصلت ، ويتم أخذ الأجرة كاملة مع نهايـــــــــــة الموسم ، وتلك طريقة متبعة من قبل العاملين في بساتين النخيل في جزيرة تاروت ، فقد يكون مستقبل المنتج هو نفسه مالكا لبستان كبير من النخيل ، فيقوم بتأجير ملكه وحلاله من النخيل الى الفلاح "النخلاوي" للاعتناء به ، وتطويره وتعميره ، مقابل أجرة مالية بسيطة ، مع توفير "مخرفة" رطب جديدة ،

مرة كل يومين ، يأتي الفلاح "النخلاوي" بمخرفة معبأة ويأخذ أخرى فارغة ، أو بها رطب تالف ، غير صالح للأكل ، وذلك طوال الموسم ، وما يبقى من الرطب يتصرف فيه "النخلاوي" بما يشاء . . لذلك تجد أن المساحات الكبيرة من النخيل سميت بأسماء اصحابها ، مثل مزرعة الكويتي ، التي أجرّها شيخان الفارس (وهو كويتي) إلى اسرة آل جمعان ، ومزرعة أبو عايشة ، تعود لأسرة تحمل هذا الأسم ، وهناك بساتين كبيرة سميت بأسماء غريبة نوعا ما مثل قطعة الآغا ، والباشلاما ، وسهم السيد ، والحسينية ، والحليبي ، وسودة ، وقضبة ، والخضاري وكلها تعود الى ملاكها الأصليين ، الذين بدورهم يؤجرون أملاكهم الى الفلاحين مقابل توفير حاجتهم من الرطب والتمر ، وقد يكون المالك شخصا من خارج تاروت مثل الآغا والسيد وبن جمعة والكويتي ، وقد يكون من داخل تاروت ، وهو مشغول بأعماله الخاصة ، فيقوم بتأجير نخيله الى "النخلاوي" للاعتناء بها ، مقابل أجرة معينة ، وتزويده بحاجته من الرطب والتمر طوال الموسم . . ويحدث أن النخلاوي يعمل لصالح مالك ، ولكن بالنسبة لي ولوالدي وجدي كنا نعمل لأنفسنا ، ولصالحنا فالمزرعة لنا نحن نملكها ونجني ثمارها ، ونقوم ببيع ما تنتجه مزرعتنا ، وكل العائد يعود لنا ، ولا ندفع إيجارا ولا حقا لأحد .

من هنا ، فالنخيل قصة حياة ، تبدأ ولا تنتهي ، وإنني وكلما أرى النخلة ، أي نخلة ، وفي أي وقت ، وكلما تسلّقت واحدة منها ، تعود بي الذاكرة الى والدي وجدي ، اللذين يكرران دائما بأن النخلة هي أمنا ،

وأذكر أني سألت والدي :

ـ وكيف تكون النخلة أمنا وعمتنا؟

فرد علي :

ـ لأنها معنا من الولادة ، وحتى القبر .

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ إن الولد في بطن إمه يتغذى على التمر والرطب ، فهو أفضل الغذاء ، لذلك امر الله الصديقة مريم (ع) أثناء الحمل بأن تهز النخلة وتأكل الرطب الجني ، (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) . . فكان لسيدنا المسيح (ع)غذاء ودواء ، وأفضل شيء للطفل في بطن أمه هو الرطب والتمر . . فهي معنا ـ يا ولدي ـ ونحن في بطون أمهاتنا .

ـ وكيف ياوالدي العزيز أن النخلة تبقى معنا طوال حياتنا إلى القبر؟

ـ إننا في حياتنا نأكل الرطب والتمر والدبس وكافة منتجات النخلة ، والخبز الذي نأكله يأخذه الخباز من التنور الذي يشتعل من السّجين والسعف والخوص وكلها من النخلة ، وكلنا نجلس على الحصير المصنوع من أوراق النخيل ، وبيوتنا كانت عششا بنيناها من سعف النخل وجذوعها ، وحتى الأسرّة التي ينام عليها الأطفال تعتمد على جريد النخل ، هذا فضلا عن أن فضلات النخل يتم التخلص منها بالحرق ، فتكون أحد وسائل التدفئة في فصل الشتاء ، وإذا متنا يقوم مجهّز الموتى بوضع قطعتين من السعف الأخضر ، تحت إبط الميت ، ويرى أنها تخفف عليه ضغطة القبر ، وإذا تمت مواراة الميت في لحده ، يتم تغطية اللحد بقطعة حصير صنعت من أوراق (خوص) النخلة ، ومن ثم يوضع عليه قطع من جذوع النخل ايضا ، تحدد طول ومكان القبر . .

على ضوء ذلك ، عقدت علاقة خاصة مع النخلة منذ أن كنت طفلافهي تولي عناية بالإنسان ، جسده وذوقه وسكنه ، وتعتني بالحيوان وتوفر لها غذاء وسكنا وهدوءا ، وكذلك الحال بالنسبة للطير فلا يجد مكان آمنا له مثل النخلة ، وتعتني نخلتنا بأجوائنا فتقاوم الغبار والرياح العاتية . .

تلك هي حياتي الأولى ، طفولة مسترجلة ، حيث ان طفلا في سنواته الأولى ، يعانق النخلة في مرحلة الإعداد ، ويعانقها في مرحلة الحصاد وجني الثمار ، ثم يقوم بدوره في مرحلة أخرى يحمل السلة أو «الجفير» ويقوم بجمع الرطب الساقط من النخيل ، فما أن ينتهي من جمع منتج نخلة حتى ينتقل إلى نخلة أخرى ، وهكذا طوال اليوم ، وبعد ذلك يقوم هو بنفسه بتنظيف هذا المنتج وإعداده ليكون طعاما يقدم الى الحيوانات «البقر والغنم» ، إنها عملية توفير الطعام للبشر ثم الحيوانات أيضا . . أنها قصة معاناة صعبة ، بل شديدة الصعوبة . . فالنخلة أولى الصنائع التي زاولتها ، وأجريت معها العديد من الحورات ، وأشهد أنها كانت صادقة معي ، منحتني ـ بفضل الله ـ الغذاء ، وساعدتني في كسب عيش كريم ، وقد نعمت في ظلها مبكرا وعشت في منزل بنى من سعفها ، وسكنت على سرير صنع من السعف اليابس ، وإذا لاقيت ربي جل شأنه فسوف يكون بعض أجزاء النخلة رفيقة لي ، لا أظن أن صديقا يسامر صديقه طوال هذه الفترة ، مثلما فعلت معي النخلة .

وما أن بلغت السادسة من العمر ، أي بعد عام من تكليفي بهذه المهام الصعبة على من هم في مثل عمري ، بدأت مهام أخرى ، تضاف إلى مهامي النخلوية ، فـ "سعيد التاروتي" في عالم مختلف ، والمهام الصعبة تتضاعف عليه عاما بعد عام ، وتزداد مع كل سنة يكبر فيها هذا الصبي الغض ، فالمسؤولية على مستوى السن ، فما يحتمله الصغير غير ما يحتمله الكبير فالأكبر ، مهامي الحياتية بدأت بالنخلة ، فما أن تنتهى مهمة النخلة ، (وهي نهاية مؤقتة تتجدد يوما بعد يوم) ، حتى يضاف لها مهام أخرى دون أن تتوقف المهام الأولى ، فبعد التعامل مع النخلة جاءت مهمة السرحان بالغنم في البساتين وسقايتها من العيون التي كانت تاروت عامرة بها ، أي أن هذا الطفل يفتح الحظيرة (الزريبة) ويخرج مع الغنم ولا يرجع إلا مع أذان الظهر ، ليرجع فيما بعد في برنامج صعب للغاية ، لم يقتصر على النخلة وركوبها وجني ما تعطي من ثمارها ، وإنما أضيف إلى هذا البرنامج برنامج آخر وهو السرحان بالغنم ، ونقلهم من الحظيرة الى البستان ، ألم أقل بأني لم أتعامل مع البشر ، وأنما مع

المخلوقات الأخرى ، فالنخلة هي الصديق الدائم طول العام ، ليأتي وفي الوقت نفسه الحيوانات الأخرى ، وهي الغنم ، فأذهب الى النخلة مع الغنم سوية ، فالغنم يرعى ويمرح ويسرح وأنا أمارس دوري مع النخلة أو مع الغنم في آن واحد ، وللغنم قصة أخرى ، ربما كانت مهمتها أسهل من ناحية التعامل مع النخلة ، كون هذا الحيوان يملك من القدرة على الحركة كي يعتمد على نفسه في الأكل والشرب والتناسل ، بعكس النخلة التي نقوم ـ نحن البشر ـ بكل اعمالها ، فنحن نسقيها وننظفها ، ونتكفل بعملية التلاقح بين المذكر والمؤنث ، ومع ذلك فإن السرحان مع الغنم يتطلب جهدا أقل من جانب وجهدا أكثر وأصعب من جانب آخر ، فأنت في وقت ما تتعامل مع نخلة واحدة ، لكنك في حال الغنم تتعامل مع عشرة حيوانات ، تدعها تأكل وتشرب في المزرعة ، لكنك في وقت ما تقوم بعملية تنظيف شاملة لأكثر من 15 حيوانا في وقت واحد ، فالغنم ايضا حيوان خلق لكي ننعم بلحمه ولبنه وصوفه ووبره ، وقد سخرّه الله لنا ، ورزقنا خيره ، ونحن بدورها نرعى هذا الحيوان ونحافظ عليه ، ونسعى لتربيته وعلفه وسقيه .

وهكذا مرّت حياتي الأولى ، اتنفس الهواء النقي في الصباح الباكر ، وأنا في الطريق الى المزرعة ، وفيها اشم روائح السعف والرطب والماء والليف تارة ، وأشم روث الغنم تارة أخرى ، واسمع صوت حركات السعف تتهافت مـــــــــــع بعضها وتتعانق محدثة نغما خاصا لا يعرفه سوى النخاولة محترفو العمل النخلوي ، أو أصغي إلى مأمآت (صرخات) الخرفان مع بعضها ، أو تغريدات البلابل وزقزقات العصافير ، ونداءت الفواخت ، التي نظن ـ نحن اهالي جزيرة تاورت ـ بانها تنادي على ابنتها ، وحين أدير نظري هنا أو هناك اجد كل نخلة تتنظر عاشقها وصديقها ، وأجد نطاح الخرفان وسلوكياتهم اليومية البريئة ، وبعد هذا الجهد البدني اليومي ، تبدأ عملية الحساب مع العملاء والزبائن ، وكل ما يتم تحصيله يتم تسليمه إلى الوالد ، فهو رب الأسرة وكلنا نأتمر بأمره .

الوالد كلّفني بمهمة رعاية النخيل ، ويتابعني يوميا ، ويعمل معي ، أو أنا أعمل معه وتحت إدارته ، لكنه في بعض الأوقات ، خصوصا في فترات الليل يزاول مهنة اخرى تضاف الى مهنة النخلوة ، الا وهي الصيد في البحر ، فهو يدخل البحر في الأسبوع أكثر من مرة ، وهدفه الصيد والبيع ، وتوفير الغذاء . . رجل اتسم بالحكمة والصمود امام تحديات الحياة ، لا يتوقف عن العمل لا الصيف ولا الشتاء ، وكل شيء بحسبه ، وحسب موسمه ، فيعتمد عدة وسائل للصيد ، وفي بعض الأيام ـ وحسب الظروف ـ كنت أرافقه ، وأجده كم هو جاد في حياته ، ويستمتع بوقته مع البحر ، فيصيد تارة بالشباك الصغيرة (السالية) ، وتارة يضع عددا من الأواني الصغيرة ويغطيها بقطعة قماش سميكة ، ويسميها "اللقية" ، فيأخذ بعض الصيد ، وقد تطور وضعه وصارت لديه محمية لصيد الأسماك ، تسمى (الحظرة) ، هي لا تعدو أن تكون منطقة ليست كبيرة ، يتم إحاطتها بعدد من جريد (سعف النخل) ، فتأتي الأسماك لها في فترة المد ، وتبقى فيها لا تخرج من مكانها في فترات الجزر ، فتكون في متناول الصياد ، كلها عمليات صيد يومية تتم بغاية السهولة ، عدا أن صعوبتها تظهر في الجو المتغيّر بين الصيف والشتاء ، وما تحدثه من ريح عاصفة أو أمطار قاصفة قد تؤخر من كمية الصيد ، وقد تدفع الصياد لعدم دخول البحر ، فالبحر يهدأ لوحده ، ويكتئب ويزمجر مع هبوب الريح .

والدي اختار لي أن أكون نخلاويا ، واختار لنفسه أن يكون صيادا بحارا ، متخصصا في صيد الأسماك والروبيان ، مع خبرته الطويلة في شؤون النخيل ، تلك حالة من تقاسم الأدوار في هذه الحياة .

ـ 2 ـ

لقد كنت أتوقع مع بلوغي السن السادسة من العمر ، أن أحمل حقيبة الدراسة مثلي مثل غيري ، وأكون طالبا في المدارس ، التي دخلت حياة الناس ، واقتحمتها على حين غرة ، وبرضا منهم وترحيب ، إذ صار الناس يتهافتون على المدارس لطلب العلم ، وبدأت تنحسر طرق التعليم في الكتاتيب ، ولم يعد مجديا وجود المعلم والمعلمة ، فالحياة الجديدة حياة علم ومدارس وكتب وأقلام وشهادات ، ولم يعد كافيا لأن يتعلم الواحد منها قراءة القرآن والسيرة النبوية فقط ، بل لابد وأن يتوج هذا العلم المقدس بعلوم أخرى كالرياضيات والكيمياء والفيزياء واللغة والنحو والصرف . . . الخ .

كنت امنّي نفسي بالدراسة والمدرسة ، ولكن بدلا من ذلك ، تم تكليفي باستلام حظيرة (زريبة) الماشية ، كعمل إضافي على عملي مع النخيل ، فصرت راعيا ونخلاويا في آن واحد ، فبدلا من تعلم الحساب والقراءة ، تعلمت كيف أسرح بالماشية ، وأتنقل بها بين مزارع تاروت ، المليئة بالماء والعشب ، حيث ان الماء في تاروت في كل مكان ، والبساط الأخضر يطغى على أكبر مساحة يابسة موجودة في جزيرة تاروت ، ولا وجود للأراضي البور الا قليلا جدا ، حتى أن بيوت بعض الناس مشيدة داخل مزارع النخيل التي تملأ الجزيرة ، فالمزارع تكاد تغطي البشر . . وبدلا من تعلم الجغرافيا تعلمت كيف أنقل الرطب الى جزيرة دارين وأعرف زقاقات الديرة ، وأسرع وأسهل الطرق الى الربيعية وسنابس ، وبدلا من الكتابة على الورق والقرطاس علّمني والدي كيف اتعامل مع عصاة "الفرض" ، وأحسب حساب الزبائن ، فتصل البضاعة إلى الزبون ويتم إزالة جزء بسيط من تلك العصا التي هي سعفة نخل يابسة قوّية . . وبدلا من الهندسة والجبر والحساب صرت احسب كم "مخرفة" وصلت الى هذا العميل ، وكم "قلة" كان نتاج هذا العام ، وبدلا من دروس التاريخ صرت أعرف متى ينضج الرطب وينتقل من مرحلة الصغر ، أو ما نسمّيه "الحبمبو" ، الى الخلال (حيث يكون لون البلح مائلا للخضرة الفاتحة ، وقد كبر حجمه) ، ومتى يكون بسرا

(باللون الأحمر أو الاصفر) ، ومتى يكون صالحا للقطف والأكل ، وبدلا من اتقاني اللغة العربية والانجليزية اتقنت لغة الصرم والقطع وصناعة "السلوق" و"الخمال" وشيئا من لغة الحيوانات فصرت أعرف ماذا يريد الخروف حينما يطلق مأمأته هل هو جائع أم عطشان أم خائف فألبي طلبه ، وبدلا من الجمع والطرح والضرب صرت أجمع التمر وافرز منه التالف واليابس (الحشف) وأحيله الى علف من أجود انواع الغذاء إلى الحيوانات ، وبدلا من دروس العلوم والأحياء صرت أعرف أنواع ومواسم ثمار النخيل وصفاته ، إذ يبدأ الموسم بمنتج النخلة "الماجية" وهي مع إختها "البكيرة" تنزل أول الموسم ، فيقبل عليها الناس ، ثم تأتي النخلة "الغرّا" وتأخذ السوق منهما ، فلا يعود أحد يقبل عليهما ، فإذا بقى شيء من رطب (الماجي والبكيرة) في العذوق ، يتم صرمها ، لكن منتجها لا يصلح لأن يكون تمرا ولا يعطي عسل التمر (الدبس) ، لذلك فهي تصلح لأن تكون علفا للحيوانات ، والحال نفسه مع رطب "الغرّا" ، الذي يأتي سريعا وينتهي سريعا ، نظرا للإقبال عليه ، وإذا ما طال في عذوقه ، فإن مصيره التلف ، فيكون صالحا لأن يصبح غذاء للمواشي ، مثله مثل ما سبقه ، ذلك بعكس الأصناف الأخرى ذات الغزارة في الانتاج ، والقدرة على مواجهة تقلبات الطقس من حرارة ورطوبة وريح ، فضلا عن جودتها وامتلاكها لخاصية الانتاج السنوي الكامل ، وأبرزها "الخلاص" و"الخنيزي" ، فهما صالحان للأكل رطبا طازجا من النخلة مباشرة ، وهما أيضا صالحان ـ بقدرة الله ــ على أن يتحولا إلى تمر بعد عملية النضج التام والتعبئة ، كما يمكن أخذ (الدبس) منهما بعد عملية تسييل لهما في الأماكن الخاصة بها ، والي نسميه "الفدا" ، كما يمكن ان يؤخذ الرطب الخنيزي ، قبل أن يصل الى مستوى النضج الكامل فيكون في مرحلة الاحمرار (البسر) ، فيؤخذ ويسلق بالماء الحار ، ثم يتم تبريده بالأخياش ، فينتج ما اصطلح عليه بـ "الخمال" وهناك من يسميه بـ "السلوق" ، بينما "السلوق" لدينا في تاروت هو الرطب المجفف ، حيث يتم غليه وعرضه على حرارة الشمس حتى يصبح يابسا ، حينها يتم أكله مجففا ، ويأخذه الأهالي للسفر معهم الى الحج او إلى العراق وإيران وسوريا ، في رحلات طويلة قد تصل إلى ستة أشهر لدى بعضهم ، تتم كلها عن طريق البر ، عبر الحافلات أو

السيارات الخاصة ، وقبل ذلك عبر الجمال والحمير ، كما كانت هذه المنتجات زاد المسافرين قاصدي البحر من أجل صيد اللؤلؤ . . فالنخلة تعطي زاد الحاضر وزاد المسافر ، وهي رداء الحي وظلال الميت . . كل هذه العمليات التي تتم اعتمادا على الماء والشمس والنار ، صرت بارعا فيها ، ومتمكنا منها ، تعلّمتها وطبّقتها وعمري لم يتعد سن العاشرة ، فلم أعد مزارعا (نخلاويا) ، بل صانعا ماهرا لعدد من المنتجات الغذائية ، للإنسان (الرطب ، التمر ، السلوق ، الخمال ، الدبس) ، وللحيوان (الحشف) ، هذا فضلا عن إشرافي على عدد كبير من الغنم والماعز ، مع حمار للتنقل ، الذي صار واحدا من الذين اتخاطب معهم ، فهذا الحمار وسيلة النقل ، وله لغة خاصة فـ "حر" يعني الدعوة الى المشي ، و"حا" دعوة للتوقف ، والعصا اذا ضرب الحمار على ظهره يعني الانطلاق ، وعلى بطنه يعني التخفيف والوقوف ، وعلى رقبته من الجهة اليسرى يعني الانحراف يمينا ، ومن الجهة اليمنى يعني الانحراف تجاه اليسار . . فالنخلة مع حظيرة (زريبة) الحيوانات توأمان يتكاتفان مع بعض ، وأنا المحور بينهما ، فالحيوان يتغذى على منتجات النخلة من الرطب والتمر التالف حيث يتم خلطه مع بعض الحشائش وبعض الطحين ومع الخبز التالف ليصبح غذاء كاملا للحيوان ، الذي لا يبخل هو الآخر على من يعتني به فيوفر له الحليب واللحم ، وعن طريق الحمار يتم التنقل من مكان إلى آخر .

مع كل ذلك ، كان ينتابني أمل بأن أكون مثل غيري من الأطفال ، بأن أذهب الى المدرسة ، لأنهل شيئا من العلم ، وطالما سمعت الملا عبدالله ، يؤكد على أن "العلم نور والجهل ظلام" ، وهو وإن لم يشرح ماذا يعني بالعلم ، لكني ـ وكذلك غيري ـ يفهمون العلم هو ما يؤخذ في المدارس والجامعات ، فقد كنت أرى الأطفال يذهبون بحقائبهم في الصباح الباكر ، وأنا ـ في مثل أعمارهم أو أكبر قليلا ـ أسير مع الحمار والعربة (القاري) حاملا عدة العمل ، وهي الكر والمنجل والمخرفة و الجفير ، مع قليل من التمر كي أتناوله في بستان النخل ، وكانت تنتابني الحسرة على ذلك ، وشعرت بشيء من الغيرة والحسد من كافة أبناء جيلي وأصدقائي ، إذ كيف يكون الوضع عادلا وكل الأطفال يدرسون

ويتعلّمون في وضع مريح من الناحية الجسدية والنفسية ، وكل هذا أنا محروم منه ، ألست طفلا مثلهم ولي الحق في أخذ العلم وفرص الحياة مثلهم؟

إن شعور الغيرة شعور مزعج ، وشعور قاتل ، وشعور يقضي على الكثير من المعاني الأخوية ، فقد غبطت كافة الأطفال ممن هم في مثل عمري ، لا لذنب لهم ، سوى أنهم ذهبوا الى مكان لم أذهب له ، ولم أحظ بهذه العناية والرعاية مثلهم ، خاصة وأن الصورة بدت واضحة أمامي ، عرفتها بالفطرة ، وهي أنهم سوف يكونون في المستقبل في حال أفضل من حالي ، ووضع مادي ومعنوي أفضل من وضعي ، وبفطرة الإنسان ، حتى لو كان طفلا لم أكن أحب أن أكون في وضع أقل من غيري ، أو يكون الآخرون أفضل منّي ، أردت الذهاب الى المدرسة ، احببت الشيء الذي حرمت منه ، فقديما قالوا :"كل ممنوع مرغوب" .

لقد ذهب أخي الأصغر إلى المدرسة ، وأخذ حقّه الطبيعي والتحق بفصولها ، فوجدتها فرصة لأن أفاتح والدي بالأمر ، واطلب منه الموافقة على التحاقي بالمدرسة مثلي مثل غيري من الجيران والأقارب ، ومثل أخي أيضا ، فكان رد الوالد لي بالرفض ، على اعتبار أن أخا لي أصغر مني قد ذهب الى المدرسة ، وليس من السليم ان يذهب اثنان من الأولاد ، إذ كيف نعيش ، وكيف نأكل ، ومن سوف يقوم بأعمال الحقل ونخيله والرعي وتوابعه ، والعمل كثير والعائلة كبيرة ، ذلك كان تفكير الوالد ، ووجهة نظره .

، فأذكر أني سألته :

ــ لماذا أنت رافض أن أروح المدرسة؟

فرد :

ـ المدرسة ، ما هي لك!

ـ وكيف ، وهل اختلف أنا عن غيري؟

ـ غيرك وضعه شي ، وأنت شي ثاني

ـ كيف ما فهمت

ـ هناك من ذهب الى المدرسة ولديهم مصدر دخل ، وإذا ذهبت أنت الى المدرسة واخوك في وقت واحد ، فمن يراعي الحلال ، ويوفر لنا الطعام ، وكيف نعيش؟

تحت هذا المبرر ، استمر الوضع معي لثلاث سنوات من الأمل والانتظار ، دخلت مع والدي في حوارات مماثلة طويلة تبدأ ولا تنتهي باتفاق ، فالوالد ـ رغم طيبته وحسن أخلاقه وهدوئه وحبه لي ولإخواني ـ كان يتصف بالحسم في القرارات ، وربما الاصرار في بعضها ، لكنه أيضا يعطي مجالا للتفاهم والنقاش ، وبفعل ذلك طلبت بعض الأقارب لإقناعه ، فقال له أحدهم وهم الخال الحاج حسن :

ـ كل الأولاد ذهبوا الى المدرسة إلا ابننا سعيد ، في حين هو أذكى واحد في العائلة ، وهذا أمر غريب

فرد الوالد :

ـ ابو علي ، هذا الموضوع انتهى ، والمدرسة ماهي من نصيب سعيد .

ـ هل هذا آخر الكلام؟

ـ عندك شيء آخر ابوعلي

ـ نعم ، عندي حل وسط ، يرضيك ، ويرضي الولد ، ويرضينا جميعا ، هو أن يروح سعيد إلى المدرسة في الصباح ، ويتابع موضوع النخيل من الظهر إلى المغرب ، والولد معك طوال العطلة . . ترى الزمن ما هو زمن المنجل والكر ، إنما زمن الشهادات والعلم والقلم والورقة ، وهذا الولد ذكي وحرام علينا نحرمه من هذه الفرصة ، التي يستفيد منها الجميع ، والدراسة كلها بالمجان ولا تكلفنا شيئا .

هنا لاذ الوالد بالصمت ، ولم يكن أمامه الا الموافقة ، وذلك لطيبة نفسه ، وحبّه لأولاده ، وحرصه على مستقبلهم ، واستجابة للضغوط العائلية ، خاصة وأنه يعطي للخال الحاج حسن احتراما وتقديرا ، وبذلك نكون قد استطعنا ــ الوالد وأنا ـ لأن نصل الى حل يرضي الطرفين ، يقضي بأن أذهب إلى المدرسة في الفترة الصباحية ، وأعمل في الحقل معه ـ أو نيابة عنه ــ في الفترة المسائية ، التي تبدأ من الواحدة ظهرا ، حتى صلاة المغرب ، وإذا كانت هناك أعمال بعد الصلاة ايضا فلا يوجد ما يمنع من القيام بها . . إن الوالد وبعد هذا الاتفاق أكد بالقول والفعل بأنه ليس ضد العلم والمدرسة ، وليس ضد مصلحة إبنه ومستقبله ، ولكن الظروف المعيشية تقتضي في كثير من الأحيان أن يعمل الولد مع والده ، وأن يعمل في سنوات ليست سنوات العمل ، وبموجب شروط الوالد التحقت بمدرسة يطلق عليها "مدرسة الغالي" نسبة إلى الأرض التي بنيت عليها المدرسة ، وكانت في الأساس مزرعة على الطريق المؤدي الى المقبرة ، وقرب مجموعة من غابات النخيل في جزيرة تاورت ، وكان عمري حينها 13 عاما ، وكان الأمر في ذلك الوقت عاديا وكان هناك بعض الأشخاص ممن أعمارهم 7 سنوات ، وقد التزمت بكل شروط الوالد ، حيث أنني أذهب الى الحقل في الظهر ، ومعي الكتاب في يد ، والمنجل في اليد الأخرى ، بل في كثير من الأحيان كنت أذاكر دروسي سماعيا ، من أفواه زملائي الذين وجدوا في مزرعتنا مكانا ملائما وجميلا لمذاكرة دروسهم ،

فالواحد يقرأ الدرس بصوت مرتفع نوعا ما ، وأنا استمع له ، فأفهم الدرس ، وقد لعب كبر سني ـ بالمقارنة مع زملائي ـ في سرعة فهم وحفظ المواد الدراسية ، وقد أشرح المطلب العلمي للأطفال بعد سماعي له مباشرة ، وكانت الفرصة لي بأن اتعلم بوسيلتين ، القراءة والاستماع ، فضلا عن شروحات المدرسين في المدرسة .

ولأنني لا أملك وقتا كثيرا للمذاكرة ، فلا بد لي من التركيز في الصف كي أحفظ وأفهم ما يقدم لي من مواد علمية أولية ، وما أن يأتي الزملاء في الساعة الثالثة أو الرابعة عصرا الى البستان ، حتى أكون قد عرفت كل شيء وصرت اقرأ لهم الدروس ، وهم بدورهم يقرأون ، وليست تلك إلا عملية استذكار لما أخذته في الصباح ، وفي كثير من الأحيان اردّد الأناشيد على الأغنام التي اشعر بتفاعلها مع الأناشيد والأهازيج ، واستطيع القول بأني كنت طالبا في الصباح ، ومعلّما في المساء ، رغم كوني فلاحا وراعيا للغنم . . وقد كان حب العمل وحب العلم توأمين ولدا معي ، وولدت معهما ، فأنا قمت بأعمال شاقة ، لكنني أحبّها ، لأنها أعمال تمنح صاحبها الاحترام ، وتعطيه ـ دون أن يشعر ـ قيمته في الحياة ، تلك الأعمال كللتُ منها وأنا طفل ، وافتخر بالحديث عنها وأنا كهل ، وأظن أن أولادي سوف يتحدثون عنها بشيء من الفخر والاعتزاز

والمفارقة في هذا الأمر أن الطلبة الصغار كانوا يرددون أنشودة :"ما أحسن الدراجة تنفع عند الحاجة" ، أو "ابي اشترى لي ساعة فلم أنم من الفرح" ولم يكن أحد منا يملك ساعة في يده ، ولم يكن أحد منا يملك دراجة . . ولكن هو منهج دراسي وضعه من وضعه ، إذ من الثابت أن هذا الواضع لا يعرف شيئا عن وضعنا المادي ، ولكن ـ وللحق ـ كانت المناهج تقدس المهن كالزراعة والصيد ، وتورد قصصا عن الفلاحين وأهمية دورهم في الحياة .

ولم تكن الدراسة في الصفّين الأول والثاني سوى كونها مرحلة تأهيلية للسنوات المقبلة ، فما نأخذه في الأول ينفعنا في الصف الثاني ، ولكني ومع دخولي الى الصف الثالث استطعت ـ بفضل الله ـ أن أقرأ واكتب بإملاء صحيح ، وبدأت معي هواية حب القراءة من الصف الثالث ، فلا يقع شيء في يدي ألا وقرأته ، وكل يوم كان بعض اصدقائي ينتظرون موظفي شركة الزيت الذين يأتون بجريدة قافلة الزيت ، وكذلك مجلة قافلة الزيت ، لأقرأهما فهي مجلة وجريدة مجانية وجميلة ، وذلك في وقت لا توجد لدينا جرائد ولا مجلات ، أو لم يكن بمقدورنا الحصول عليها ، كما أن بعض الطلاب كانوا أبناء لموظفي في شركة النفط فيأتون بالنسخ الجديدة للمجلة فيأخذها بعض المدرسين ، وبعض الطلاب ـ وأنا منهم ـ بغرض القراءة ،

وفي المدرسة كان المراقب ، الذي يقوم بدور المدير الميداني في المدرسة الاستاذ يوسف عيد ، هو الشخص الذي يتعامل مع شؤون الطلبة مباشرة ، وهو الذي يطلق الصافرة إيذانا ببدء الحصص ، وانتهاء الفسحة الدراسية ، وهو الذي إذا جاء بعصاه الطويلة ينتشر الطلاّب في كل ناحية ، فحين يقول :"على الصف" فهي كلمة لا تنزل الأرض ، يعني أن الجميع ملزمون بأن يقصدو الفصول ، ولا ينبغي ـ بعد أمر يوسف عيد ـ البقاء في الساحة ، أو في أي مكان خارج الصف ، إنه جبار المدرسة في ذلك الوقت ، لم يكن أحد يجاريه ، أو حتى يناقشه ، فعيناه الحمراوان ترعبان الكبير قبل الصغير ، وصوته الأجش ذو البحة القوية الناجمة عن كثرة تعاطي الدخان تحدث رعبا في كل المدرسة ، وليس في تلك المدرسة طالب لا يخشى هذا المدرس ، الذي وضع الطلاب على الجادة ، وكان أداة لتطبيق النظام في كافة مرافق المدرسة ، التي سارت بنظام حديدي لا يفك ولا ينفك .

وذات يوم واثناء الفسحة الدراسية قصدته في مكتبه وكان برفقته استاذ آخر يدعى استاذ رسلان وكلاهما من حملة الجنسية الفلسطينية ، عدا أن هذا الأخير اقل قساوة من الأول ، وأهدأ في نمط التعامل ، بحكم أنه مدرس ودوره

يتمحور في نطاق التدريس ، بينما الأستاذ يوسف يقوم بدورين ، دور التدريس ودورالإدارة الميدانية ، وقبل أن أتحدث بادرني الاستاذ يوسف عيد ببسمته المختصرة ، ونظر لي بعينيه القاسيتين دائما ، وبصوته الخشن قائلا وبلغة لا تخلو من القسوة :"سلامات يا تاروتي ، تارك فصلك ليش؟" ، فرددت عليه :

ـ جئت اسأل وكلّي أمل بأن أحصل على ما أريد

فرد علي ساخرا وبلغة عربية فصيحة يقلد فيها الممثل اللبناني رشيد علامة :

ـ وماذا أردت ياهذا؟

ـ اردت أن استفسر ما إذا كان بالإمكان الدراسة ليلا؟

ـ ليلا؟! لمن تسأل ، ومن تريد أن يدرس ليلا ، أبوك أم جدك؟

ـ لا أبي ولا جدّي ، بل أنا أريد أن أدرس في الليل؟

ـ الدراسة في الليل هي للذين تجاوزت أعمارهم العشرين سنة ، ولذلك سميت فصول محو الأمية ، وبالنسبة لك فأنت تدرس في النهار ، ومسيرتك جيّدة ، لماذا تريد أن تهدم ما بنيته ، وكلها سنتان وتتخرج من الابتدائية .

ـ يا استاذي ، أنا أريد مواصلة البناء ، وأطمح لأن أدرس متطلبات الصف الخامس في الليل ، وأواصل دراسة متطلبات الصف الرابع في النهار .

ـ يعني أنك تريد انهاء سنتين في سنة واحدة

ـ نعم يا استاذ ، اذا لم يكن هناك أي مانع .

هنا نظر الاستاذ يوسف إلى الاستاذ رسلان ، وكل منهما قد أبدى استغرابا ، ظهرعلى قسماتهما ، اذ علت صفحات وجهيهما حمرة خفيفة ، وقد خلط الواحد منهما الابتسامة بالإعجاب ، والسخرية بالتردد ، وسادت المكان حيرة وحالة صمت عجيبة ، فما كان من الاستاذ رسلان إلا أن وقف من على كرسيه ، وهو ينتظر ما يقول الاستاذ يوسف عيد الذي بادرني بالتساؤل :

ــ وهل تستطيع إنهاء متطلبات صفّي (الرابع والخامس) في وقت واحد .

فرددت عليه بكل ثقة :

ــ نعم أستاذي ، ويمكنك اخضاعي لأي تجربة في هذا الشأن .

ــ يا إبني المسألة ليست بالسهولة التي تتصورها ، فالكثير من الطلاّب بالكاد يتخطّون هذه المرحلة ، والكثير منهم لا يتخرّجون الا بشق الأنفس وتعب القلب ، وإن الكثير منهم لديه في مسيرته الدراسية سنة أو سنتان من الرسوب ، بل أن العديد من الطلاب لم يكمل دراسة المرحلة الإبتدائية ، فضلا عن أن مقرّرات الصف الرابع تختلف عن مقررات الصف الخامس ، وهي صعبة على معظم الطلاب .

ــ استاذي العزيز ، إنني مستعد لهذا الأمر ، فعمري ليس صغيرا حتى أتعثّر ، وكل من هم في عمري قد بلغوا المرحلة الثانوية ، وما خطوت هذه الخطوة الاّ لثقة كبيرة في نفسي وإمكانياتي ، وأنا أرغب في طي المراحل ، واختصار الزمن ، وتعويض السنوات التي تأخرت فيها عن الإلتحاق بالمدرسة ، وأعتقد جازما أنك تقدر هذا الأمر .

وبعد نقاش ليس طويلا بيني وأنا طالب ، وبينهما وهما مدرسان ، وفارق السن كبير بيننا ، فضلا عن أن هيبة المدرس وسطوته لا تسمح للكثيرين بالحديث معه بأي طريقة ، غير طريقة الإذعان والسمع والطاعة ، فهو مخوّل من قبل إدارة التعليم وإدارة المدرسة والأهالي والناس كلهم بأن يفعل بالطالب ما يشاء من الضرب والشتم والسب ، وكل طالب يخاف من مدرّسه ، فلا يجرأ أحد منّا ـ نحن الطلاب ـ ان يتمشى أو يلعب في مكان ما ويراه مدرسه ، حينها سوف تطاله في اليوم الآخر عقوبة غير متصورة ، لكني ـ مع كل ذلك ـ استطعت إقناعهما بالأمر ، وأوصلت لهما فكرتي ، فكان آخر كلام قاله لي الاستاذ يوسف عيد ، بعد أن ارتسمت على وجهه معالم القبول والاقتناع بأن مثل هذه المسألة تحتاج الى قرار من المدير ، وأنه سوف يرفع الطلب إليه ، وسوف يسعى لإيصال الفكرة له .

ومضت بضعة أيّام على هذا الطلب وأنا كّل يوم أمر على الاستاذ يوسف عيد وأذكّره بطلبي ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، وكان يؤكد لي بأنه يتذكر طلبي لمجرد أن يرى وجهي ، أو يسمع صوتي ، وذات يوم تفاجأت به وقد رفع صوته يناديني ويطلب منّي الحضور إلى مكتبه ، فأجبت طلبه ، وكانت نفسي قلقة جدا من عدم الموافقة ، وإذا به يبتسم ، وقلّما ابتسم هذا الشخص ، فأخبرني بأنه عرض الطلب على المدير ، وحصل على موافقة بأن ألتحق بطلاب الصف الخامس ليلا ، على أن يبقى مع طلاب الصف الرابع في النهار ، ولم تتم تلك الموافقة ـ حسب الاستاذ يوسف عيد ـ الا بعد أن تأكد المدير أن الطالب مؤهل لهذا الأمر ، وذلك من خلال اطلاعه على السجل الشخصي لي وعمري ، وعلاماتي في الصفوف الثلاثة الأولى من المدرسة ، واقتنع ـ ولله الحمد ـ بقدراتي وامكانياتي الشخصية التي تؤهلني لأن ادرس متطلبات صفّين في وقت واحد . . وقام الاستاذ يوسف عيد بإعطائي كافة الكتب الدراسية الخاصة بالصف الخامس ، وطلب منّي أن أثبت للمدير جدية هذا الأمر ، وأن الأمر استثنائي .

وبعد هذه الخطوة الجريئة صار برنامجي اليومي مزدحما للغاية ، فبات مطلوبا عليّ أن أذاكر في اليوم ضعف ما كنت أفعله في السنوات الثلاث الماضية ، وبات لزاما عليّ أن أبذل جهودا إضافية لترسيخ القناعة لدى والدي بأن الخطوة التي خطوتها وقاتلت من أجلها صحيحة وسليمة ، فالدراسة تتم في فصل الشتاء ، والنهار لا نكاد نشعر به ، والعمل في المزرعة يتم في فترات ما بعد الظهر ، وفي هذه الفترة صار علي ـ بعد خطوة الدراسة الليلية ـ أن أكون مستعدا للذهاب الى المدرسة ليلا ، وعليّ في الوقت نفسه أن أؤدي مهامي في المزرعة والزريبة على أكمل وجه ، فالوالد لم يعد يقبل أي تقصير ، فصار دوامي اليومي يبدأ من السادسة صباحا وهو الذهاب الى المدرسة حتى بعد صلاة الظهر ، حيث أتناول وجبة الغذاء ثم الذهاب فوا إلى المزرعة لأقوم بواجبي تجاه النخيل والمواشي ، وفي الوقت نفسه عليّ أن استعد للذهاب الى المدرسة ليلا ، خاصة وأن واجبات منزلية كثيرة ، كحفظ الأناشيد أو السور القرآنية ، وكتابة مقاطع طويلة من كتاب "القراءة والمطالعة" كنوع من تدريب الطالب على الكتابة ، فضلا عن حل مسائل الحساب ، بالإضافة الى الدروس الـــــــــــدينية المختلفة ، وهذا ما يتطلب منّي ومن باقي الطلاب الحفظ والمزيد من القراءة ، فكان القرار صعبا ، وكان لزاما عليّ ـ أنا صاحب الخطوة ومتخذ القرار ـ تحمل كامل المسؤولية ، وصار خياري الصعب هو السهر ليلا ، والتركيز على الدروس نهارا ، ومحاولة استيعاب المواد الدراسية بأقصى سرعة وبأقصر الأوقات ، فالوقت لا يسعف ولا أحد سوف يتحمل المسؤولية عن الآخر ، وكان الفشل والإحباط يطلاّن برأسيهما أمامي ، فأي إخفاق في الصف الرابع يعني إخفاقا مماثلا في الصف الخامس ، والإخفاق فيهما يعني إخفاقا في الدراسة ككل ، لقد بلغ تركيزي على المادة ، واستيعابي لكل متطلباتها حدا إنني أقوم بشرحها للطلاب لمجرد انتهاء الحصة ، خاصة ممن يدرسون في الفترة الليلية فأغلبهم من كبار السن ، وممن فاتهم قطار الدراسة لدرجة لا يسمح لهم بالالتحاق بها في النهار ، وجميعهم ذوو ارتباط عملي واجتماعي ، فقلّما تجد واحدا منهم غير متزوج ، وليس عليه مسؤوليات عائلية ، فكان وجودي بينهم مكسبا لهم ، والحال نفسه إذا ما جاء زملائي في الدراسة النهارية فأنا في الغالب مشغول

ببعض نخلاتي وبعض المواشي ، ضمن مهام العمل فيها في فصل الشتاء ، فهم يلجأون لي في شرح ما يستعصي عليهم فهمه ، خصوصا في النحو والرياضيات ، وفي كثير من الأيّام أذهب الى المدرسة ولم أكن قد ذاكرت بعض الدروس اعتمادا على فهمي واستيعابي لها من فم المدرس وشرحه وسبّورته ، وأجيب على أي سؤال بدون مذاكرة او مراجعة ، وإذا كانت ثمة جلسة للمذاكرة فهي موجهة لحل الواجبات وحفظ ما يطلب منّا حفظه ، والتي تتطلب الجلوس لها ساعة او ساعتين أو ثلاث ساعات ، وفي معظم الأحيان يكون الكتاب في يد ، والمنجل وبعض آلات الزراعة في يد أخرى ، وفي كثير من الأحيان اقوم بقراءة الأناشيد التي أريد حفظها على البهائم ، وأعلم حقا أنها لا تفهم شيئا مما أقول ، ولكن هي الحياة تحمل بعض الود لبعض الحيوانات ، التي ربما كانت أفضل من بعض بني البشر في بعض المواقف ، فهي لا تملك حق الاعتراض على الصوت ارتفع أو انخفض ، كما أنها تعيش لوحدها لا تولي اهتماما بسلوكيات البشر ، عدا أنها تعطي البشر الكثير من الحقائق ، والمعلومات ، فالكلب يعطي معنى الوفاء ، والذئب معنى الدهاء ، والنمر يبعث معاني في العزة والإباء .

لقد كنت في هذا الوضع اعتمد على قدراتي الذاتية ، وعلى مهارة الحفظ والفهم والتركيز ، وقد تكللت هذه الجهود واستطعت ـ بفضل الله ـ أن أحقق النجاح في الصفّين ، وبتفوق أيضا ، وبرضا تام من قبل المدرّسين ، وعلى رأسهم الأستاذ يوسف عيد ، الذي ظل يدافع عن خياره ، ويتابعني في كل مرة يراني في بهو المدرسة ، وكان أول شخص يخبرني بالنتيجة ويسلّمني الشهادتين ، لأنقل الى الصف السادس .

لقد التحقت بالصف السادس وأنا أعي خطورة هذا الأمر ، لذلك تمت الأمور بنجاح ، وتمكنت من تحقيق مركز متقدم من بين الطلبة ، وجاء موعد الامتحانات الذي يغاير كافة الامتحانات في الصفوف الأولى من عدة نواحي :

1 ــ الامتحانات كلها تحريرية ، فلا يوجد شيء من المواد يختبر شفهيا ، بما فيها المطالعة ، والقرآن الكريم ، وكافة دروس الدين .

2 ـ الأسئلة تأتي مطبوعة مغلّفة من الوزارة والإدارات الممثلة لها في المنطقة ، فهناك ممثل لإدارة التعليم يأتي في الصباح بظرف مغلق يسلمه الى المدرسة ، ويأخذه مغلفا بعد الظهر ، وكل المسؤولين في المدرسة ، بمن فيهم المدير والوكيل والمراقب وجميع المدرسين لا علاقة لهم بأي شيء سوى إقامة الامتحان ، فالاسئلة توضع من الوزارة ، وعمليات التصحيح تتم عندها ، ورصد الدرجات كذلك .

3 ـ كتابة إجابات الامتحانات تتم بقلم الحبر السائل ، ويشترط أن يكون لونه ازرق مائلا الى السواد ، لذلك كان كل طالب يعمد لشراء قلم سائل لأداء الامتحانات ، وكان السائد من بين الاقلام السائلة هي (الباركر ، والشيفر ، والبيجو ، وامبريال) ، وكان سعر القلم 1 ــ 3 ريالات ، في حين ان مصروف كل طالب اليومي (ربع ريال على الأكثر) ، ولا يسمح باستخدام أقلام الحبر الجاف (البك) ، أو اقلام الرصاص .

4 ــ ترتيب الطلاب تتم حسب رقم الجلوس ، الذي يتم عبر الترتيب الأبجدي لأسماء الطلاب ، فتجد طلاب من الصف "أ" مع طلاب من الصف "ب" ، في صالة امتحان واحدة ، مع مراقبين من خارج المدرسة ، ويتم حساب النتائج حسب رقم الجلوس ، لا حسب الإسم ، الذي يتم إخفاؤه لتحقيق العدالة في التصحيح .

5 ــ النتائج لا تؤخذ من المدرسة ، وإنما من إدارة التعليم مباشرة ، التي تعلن عنها في وسائل الاعلام (الراديو ، التلفاز ، الصحف اليومية) ، وتعطي المدرسة نسخة من النتائج بعد توزيعها على وسائل الاعلام . فكل طالب يتسمّر امام المذياع ، يريد أن يسمع إسمه ليحتفل بالنجاح ، كما أن جميع

الأسماء تعرض في الجريدة اليومية ، فمن لا يقرأ الجريدة طوال عمره فإنه يشتريها في ذلك اليوم .

6 ــ الاحتفاء بالنتائج يختلف عنه في الصفوف الأولى ، ومن ينجح من الصف السادس فإنه يحتفل مع زملائه فيعطي هذا زجاجة كولا ، وذاك علبة ايسكريم ، أو بعض العلكة والسكاكر ، ومن يملك مستوى ماليا جيدا فإنه يقوم بتجهيز وجبة غداء دسمة له ولكل أصدقائه ، ويتم خلالها تبادل التهانـــــــــــي ببركة النجاح ، فتجد الواحد يقدم عن نفسه ، ويستقبل الهدايا من غيره . .اما أولياء الأمور فقد صار من المتعارف عليه ان الطالب الذي ينهي الصف الرابع يستحق ان يلبس ساعة في يده ، حيث ان الوقت يحسبه ، ويكون قد تعلّمه في درس الحساب في الصف الثالث ، ومن ينهي الصف السادس يستحق ان يركب الدراجة العادية ،

وبالنسبة لي للأسف لم يتسن لي أن أحصل على تلك الساعة ، ولا تلك الدراجة ، لكني ما أن سمعت إسمي في الراديو (المذياع) حتى قفزت من مكاني ، وانطلقت فرحا ، وذهبت الى والدي اخبره بالنتيجة ، وأشعره بأن السماح لهذا الولد بالدراسة ليس قرارا خاطئا ، وأن هذا الولد سوف يكون ذا شأن في يوم ما .

إن من ينهي الصف السادس ــ في وقت ما ـ يعد متعلما حقا في بلادنا ، وهو على مستوى بأن يعتمد عليه ، وأن يلتحق بالعمل في أي مكان ، وكانت شركة الزيت العربية الامريكية (ارامكو) تستقبل خريجي الصف السادس ، شرط ان يكون في العمر القانوني ، وهو 18 عاما ، والحصول على شهادة السادس ابتدائي يعني الحصول على الشهادة الابتدائية والتأهل الى مرحلة أخرى ، ومن يحصل على هذه الشهادة يحظى باحترام الناس ، وتقديرهم ، فهو الآن قادرعلى القراءة والكتابة ، وقد يطلب منه إعداد خطابات أو الإجابة على خطابات أخرى ، كما يعتمد عليه في قراءة أي شيء فالبعض يكلف إبنه

بقراءة القرآن خلال شهر رمضان المبارك ، فهو موضع ثقة والده ، وبات حسب تعبير الآباء "صاحب قلم" ، كما أن بعض الأسر تكتفى بهذا المستوى من الدراسة فالولد قد بلغ مبلغ الرجال ، وعليه ان يعمل ويتزوج ، خاصة إذا كان شخصا قادرا قد التحق بالدراسة متأخرا في العمر مثلي ، ففي الصف السادس بات عمري 18عاما ، وهو سن يستحق بموجبه الشاب الحصول على حفيظة النفوس (التابعية) ، ويحق له الالتحاق بالعمل في أي شركة كانت .

لقد انتابني شعور بالثقة بامتلاك ناصية المستقبل ، وأن الأمور تسير في الطريق الصحيح ، وأن الحياة لم تتوقف على سنة أو سنتين شاءت الظروف أن يكونا في غير المسار الطبيعي المعتاد ، وقد كانت إجازة الصيف ، حينها من أفضل الاجازات في حياتي ، صحيح أن معالمها وبرنامجها لم يتغير ، فالعمل في المزرعة وجني الرطب وبيعه ، لكن من يجني الرطب هذا العام هو شخص يختلف عنه في الأعوام السابقة ، فهو اليوم يستطيع أن يقرأ ويكتب ، ولا يشعر بأي فارق بينه وبين قرنائه ، الذين كانوا ـ في وقت سابق ـ مزعجين له وهم يجلسون في الصباح الباكر ويلبسون أفضل ما عندهم ويذهبون الى المدرسة ، وفي العصر يأتون ليتداولوا ما أخذوه في الصباح ، ثم يستعرضون النكات والمواقف التي تحصل لهم في المدرسة مع الطلاب والمدرّسين ، ويتحدثون عن اسبوع النظافة ، وعن ريال فلسطين ، وعن المسابقات ، واللعب والمرح . . . . الخ . .الآن حقق المعادلة الصعبة ، وأتى بشيء لم يأته أحد من الطلاب الذين طالما كان يغبطهم ويتمنى ما لديهم ، أنه قد أنهى الابتدائية في خمس سنوات ، بينما آخرون أنهوها في ست سنوات على الأقل ، هنا مصدر الثقة ومصدر الفخر ، صحيح أنا فقير وفلاّح مدقع من الناحية المادية ، لكني متفوق على اولئك الذين هم أغنى منّي ، لقد انتابني شعور بالفخر من جهة ، وشعور بالقدرة على إنجاز شيء ، أي شيء ، وترسخت لدي بأن كل شيء في هذه الحياة يمكن أن يصير ، وصرت مع نفسي أستعرض تلك القصة ، وأتعمّق في تجربتي الذاتية ، وامتدحها ، وامنحها المزيد من الثقة ، فأنا اليوم لا أتحدث الا باللغة العربية الفصحى ، حتى بعض الآباء يذهبون بي الى بعض رجال الدين

كي احظى ببركاتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم ، فأحدهم نصحني بقراءة القرآن يوميا ، ولو قدّر لي ان احفظ ما يتيسر لي فهذا أفضل ، وآخر نصحني باقتناء كتاب (نهج البلاغة) وهو مجموعة خطب وخطابات وحكم الامام علي (ع) جمعها أحد أحفاده وهو الشريف الرضي ، بينما كانت نصيحة ثالثة تدعوني لأن أمارس الخطابة والكتابة ، وهي مواهب لا ينالها الاّ القليل من الناس ، لقد شعرت بفرح بعض الأقارب والأباعد بي وبنجاحي ، فشعرت بأني جزء منهم ، فهاهم اليوم يفرحون لفرحي ونجاحي ، وبعضهم كان قد تحدث مع والدي كي التحق بالمدرسة ، فأحمد الله أني كنت عند ثقتهم . إن الشعور بالنمو لا يوصف ، ولا شبيه له ، وحينما تحقق في ذاتك شيئا إضافيا فإن ذلك يعطيك قيمة واحتراما بين الناس وبين ذاتك في الوقت نفسه . . هذا هو الشعور الذي انتابني حينما حققّت النجاح في المرحلة الابتدائية ، التي أنهيتها في خمس سنوات ، بعد أن التحقت بها وأنا كبير في السن بالمقارنة مع باقي زملائي ، دخلتها وأنا أملك خبرة كافية في التعامل مع النخيل والرطب والدبس ، فضلا عن التعامل مع الحيوانات ، فأنا الآن ملكت ناصية العلم ، ليتوج مع خبرة السنين الأولى في التعامل مع النخلة ومتعلقاتها . وكم هي السعادة غامرة ، والنفس مبتهجة وأنا أمارس دوري وأقوم بمهام العمل في الحقل مع معشوقتي الأولى (النخلة) ، فهي التي ترحب بي طول النهار ، تظللني وتوفر لي الغذاء ، وتمنحمي الحرية والاستقلالية والكرامة ، ولن تبخل عليّ إذا ما انتقلت الى العلي الأعلى .

إن تلك السنة التي حملت فيها الشهادة الابتدائية سنة استثنائية ، فالشهادة الابتدائية تعد شهادة عليا في وقت ما ، يتأهل حاملها للعمل في شركة النفط التي كانت على أهبة الاستعداد لاستقبال حملة هذه الشهادة ، بل أن الكثير من الناس كانوا يسعون للحصول عليها بغية الالتحاق بالشركة ، فالشهادة الابتدائية كانت عربون الدخول في العديد من المجالات ، والخطوة الأولى لمسيرة حياة عملية ذات آفاق واسعة ، فكانت تلك محطة هامة في حياتي العملية التي بلغتها اعتمادا على نفسي ، فقد قدر لي ومنذ نعومة

اظافري ان أكون تلميذا في مدرسة الحياة ـ كما اصبحت تلميذا في المدرسة ـ فالنخلة بتفاصيلها تعني الحياة اليومية ، تعني الوقوف شامخا أمام تحديات الحياة ، هذه النخلة بمثابة مدرسة استفدت منها الكثير من معاني الشموخ والتحدي والصمود ، لأنطلق نحو رحاب أوسع في هذه الحياة ، وحين أشاهد نخلة عبثت بها عوامل التعرية ، وعوامل الإهمال اضيق ذرعا بحياتي ، وينتابني شيء من الاكتئاب ، وأحزن كثيرا ، فهذه النخلة كانت مدرستي الأولى التي تعلّمت منها مقاومة الصعوبات ، وغرست في داخلي الطموح ، وأوجدت في زوايا نفسي الهمة العالية ، ومنحتني ـ بفضل الله ـ معاني القدرة على مقاومة الصعاب ، فضلا عن الذوق الرفيع ، من يعمل أو يتعامل مع النخلة لابد أن يكون نظيفا ، وراقيا ، حتى لو نظر إليه البعض بأنه نخلاوي كنوع من التصغير والاحتقار ، هذا النخلاوي يسير وفق نظام صارم ، فهو ملتزم بأوقات التحدير (تجهيزالنخلة) والصرام (قطع عراجين النخلة) ، والخراف (قطف الرطب الطازج) ، وهو ملتزم بنظافة المكان ونظافة النخلة حتى لا تكون مكانا لمخلوقات قذرة كالفئران وما شابه ذلك ، وهو يتعامل مع الماء والهواء والخضرة وكلها من مقومات الذوق الرفيع ، كما أنه يرعى الحيوانات ويحافظ عليها ، ويرحمها لأنها مخلوقات الله ، وجدت لتحقيق المنفعة لبني آدم .

ـ 3 ـ

لقد كانت إجازة الصيف جميلة ذلك العام ، كونها قد شهدت ترسخ ثقتي بنفسي ، التي كادت أن تضيع في زحمة الحياة ، وبدأت أشعر بالتوازن الذي انتابني وقد أوشك أن يفارقني ، فبت اشعر أن لا فرق ـ الآن ـ بيني وبين الصبية الذين دخلوا المدرسة ، فلا فخر لهم علي ، بيد أن فوارق طبيعية تحدث في حياة وسلوكيات البشر ، فإذا كان بعض الناس يقضون صيفهم في اللعب واللهو ، والسهر و النوم ، والسفر مع أهاليهم ، فأنا صيفي أقضيه بالعمل في الحقل أو في حظيرة (زريبة) الأغنام ، ثم أضفنا لها عددا قليلا من الأبقار ، مع الحمار والعربة ، فلكل متعته وسعادته ورفاهه .

لقد قضيت إجازة سنوية ، وأنا أحمل الشهادة الابتدائية ، فكان صيفا مختلفا ، والعطاء مختلفا ، والأجواء ـ بالنسبة لي ـ مختلفة ، فأنا أعمل ولكني استعد لمهمة أخرى ، مهمة شاقة وهي السير في طريق العلم للوصول إلى أرقى المراتب وأعلى الشهادات ، وبالتالي فالمستقبل واعد بوضع أفضل من الناحية المادية والمعنوية ، مع الحفاظ على مستوى عال من العطاء في الاعتناء بالنخيل والماشية ، فكان الوضع الشخصي مختلفا ، فقد نما في داخلي مارد إسمه القراءة ، لا استطيع أن اتخلى عنها ، وكلما قرأت كتابا شعرت بأني محتاج لأن أقرأ آخر ، وكلما بلغتني معلومة اشتقت إلى معلومة أخرى ، وكلّما سمعت بخبر انتابني شوق لمعرفة تفاصيله ، ولا اترك مجلس علم وحوار الا قصدته واستمعت لما يحمله وما يحويه ، وشاركت في مناقشاته التي يشعر الإنسان أنه قد صعد إلى الأعلى ، ونفسه قد ارتقت ، وإنني في ظل هذا السلوك الإنساني أشعر بالفارق الكبير بين الإنسان العالم والإنسان الجاهل ، وبين الإنسان كإنسان وبين المخلوقات الأخرى التي لا تعرف شيئا ، وكل همّها علفها ، وشغلها تقممها ، كما قال الإمام علي(ع) .

وكانت مكتبة الملا عبدالله بمثابة الكنز الذي وقعت عليه ، دون أن أشعر فهو خطيب منبري ، يمارس مهنة الوعظ والإرشاد وتوجيه الناس ، وهذه المهنة شاقة ومتعبة ، وبحاجة الى المزيد من العلم والإطلاع ، ولا يدخلها الا من يملك وسائلها ، وهي كثيرة منها المثابرة والجد والاخلاق والتواضع والمهارة ، وكلها متوافرة في هذا الشيخ الجليل الذي يملك مكتبة بها الشيء الكثير من الكتب ، رغم كونه شخصا فاقدا للبصر ، واطلاعه على الكتب يتم عبر قراءة الآخرين له ، فكل ثقافته سماعية ، فهو يسمع ويحفظ ويركّز ثم يصعد منبره ويقرأ وينصح وينقل ما سمعته إذناه ووعاه عقله ، لا شك أنها كفاءة نادرة ، كنت أقوم بزيارة هذا الرجل كل يوم وأقرأ عليه ما يتيسر لي من الكتب ، ذلك بعد الانتهاء من مهامي في الحقل والحظيرة ، فتتحقق الفائدة لنا ـ نحن الاثنين ـ فهو يتزود من العلوم والمعارف لكي ينقلها إلى الناس بحكم مهنته ومسؤوليته ، وأنا أقرأ الكتاب بصوت مرتفع للاستفادة لي وله ، ولم يتوقف الأمر على قراءة الكتب ، بل وفي بعض الأحيان كان يقوم بدوره بشرح بعض المطالب العلمية التي تصعب على مثلي ، فقد قرأت على يديه كتاب متن الاجرومية في النحو وشرحها لي بالتفصيل ، وقرأت له من الدواوين الشعرية ما لا يحصى ، ومن كتب التاريخ الشيء الكثير ، خصوصا تاريخ النبي (ص) ، وسيرته وسيرة أهل بيته ، فكان لي أبا وأخا كبيرا ، وكان يتعامل معي مثل تعامله مع أولاده ، وهكذا استمرت الأمور معي خلال تلك الإجازة الصيفية ، ففي النهار مشغول بالأعمال اليومية ، وفي الليل أسعى وراء تنمية المعارف والثقافة ، هذا فضلا عن علاقتي بالمذياع وتحديدا اذاعة لندن (بي بي سي) التي احرص على الاستماع إلى اخبارها وبرامجها السياسية والثقافية والعلمية والأدبية . . كل هذا مع استمرار العلاقة اليومية التي لا تنقطع مع النشاط الزراعي ، مع النخلة وتوابعها ، والحظيرة وسكانها ، فقد صرت راعيا لعدد من الكائنات الحية .

على العموم لقد انتهت الإجازة ، وعدنا الى المدارس ، فقد انتقلت إلى المرحلة المتوسطة ، ذلك في المدرسة التي تقع على طريق دارين ، قرب ملعب نادي النسر (نادي الهدى فيما بعد) ، تلك المرحلة هي الأخطر عادة في حياة

الإنسان الشاب ، لكنّي دخلتها وعمري كبير نسبيا ، وربما كان اطلاعي على الحياة وتقلباتها أكثر من زملائي ، وكنت ـ بفضل الله ـ من البارزين المتميزين ، أفهم الدرس وأقوم بشرحه الى زملائي ، حتى أن مدرس اللغة العربية تعوّد أن يقوم بطردي من الصف ، لا لسبب سوى إنني ختمت الدرس وعرفت تفاصيله ، وفي درس الأدب يعتمد علي المدرس في شرح الأبيات الشعـــــــــرية لزملائي الطلبة ، فقد كنت طالبا ومدرّسا في آن واحد ، وذلك لفارق السن ، ولوجود حالة الاهتمام لدي بهذا الجانب .

وذات يوم ، وفي في الأيام الأخيرة للسنة الدراسية الأولى جاء فرّاش المدرسة واستدعاني الى الإدارة ، لأن المدير يطلبني لموضوع هام ، ولم أعلم لماذا هذا الاستدعاء ، وما هذا الموضوع الهام ، وكل ما أعرفه إني شخص مواظب على الدراسة ، وملتزم بأداء الواجبات ، ولم يسجل عليّ أي زلة او خطأ او تجاوز للحدود ، ولكن قلت في نفسي ، لأذهب وأرى ماذا يريد المدير ، وحينما دخلت الإدارة فوجئت بحضور أخي واثنين من أقاربي ، وقد بدت على وجوههم علائم الحزن والأسى والتعب ، فقلت في نفسي أن ثمة خطبا كبيرا جرى ، وأن حدثا جللا قد طالهم ، وهم جاؤوا ليخبروني به ، ولم يكن بالإمكان الحديث معي مباشرة ، وإنما عن طريق المدير ، الذي طلب منّي بأن اجلس فجلست ، وقد ازداد قلقي ، وحلّت في نفسي الشكوك والظنون ، وصرت أسير الوساوس والهواجس ، وصارت تجري في دمي حالة غضب مصحوبة بالقلق ، فبادرتهم بسؤال :

ـ سلامات ، خير إن شاء الله

فرد عليّ المدير :

ـ الخير في وجهك ياسعيد ، ولكن جاءنا خبر محزن ، أتمنّى أنك تستقبله بنفس صابرة ، فأنت رجل لطالما تحمّلت المسؤولية ، وواجهت الكثير من الصعاب ، وأظن إنك أهل للاحترام والتقدير ، وتفهم الوضع

ـ اقلقتني يا استاذ ماذا جري؟

ـ أردت أن أقول لك أن الوالد قد أعطاك عمره ، وقد انتقل الى رحمة الله ، والموت علينا حق ، وما عليك إلا الصبر ، فنحن لا نملك أن نرد ما قدّره الله .

حينها لذت بالصمت من هول المفاجأة ، وتمكن الأسى من قلبي ، وخنقتني العبرة ، ولم أستطع أن اتمالك نفسي ، لأن الميت والدي ، وصاحب الفضل الأول والأخير عليّ ، حينها قمت لأخي واحتضنته وبكيت معه ، وحينما سألته عن الحدث ووقته وكيف ، زاد بكاؤه وارتفع صوته وقال لي بأنه توفي غرقا في البحر ، فقد دخل في الصباح الباكر ، وكانت الأجواء طبيعية ، ولم يتوقع أن هواء قويا سوف يهب عليه بصورة مفاجئة في فترات الظهر ، فجرفه المد ولم يستطع أن يقاوم الموج ، وقد لقيه بعض الصيادين ملقى على الساحل ميتا ، يرحمه الله . . حينها استأذنا من المدير لكي نذهب لإكمال اجراءات مواراة المرحوم ونقله الى مثواه الأخير ، وهذا ما تم فعلا .

إن وفاة الوالد كان يوما صعبا عليّ من شتى النواحي ، فمن جهة ان الوالد قد انتقل إلى رحمة الله بصورة غير طبيعية ، ومفاجئة ، ومؤلمة في الوقت نفسه ، وهذا ما أتعبني نفسيا ، كما أتعب غيري ممن لهم علاقة به ، لما يملكه المرحوم من صفات حسنة تجعل من يعرفه يحبه ويحترمه ويقدره ، ويأسف لفراقه .

في تلك اللحظة بدأت استعرض مسلسل ذكرياتي مع والدي ، هذا الوالد الشهم الطيب الكريم ، الذي أخذ طيبة أهل البحر ، وشهامة الفلاحين ، وتواضع رجال الدين وأخلاقهم ، فقد اشرف على تربيتي على قيمة الإيمان بالله ، وطالما كان يكرر علي وعلى أخواني بأن العمل ـ أي عمل ـ إذا لم يكن خالصا لله فإنه يفقد البركة ، وتبعا لذلك تعلّمنا منه القناعة وأنها كنز لايفنى ، فالقناعة تعني أن تقبل بما رزقك الله جل شأنه ، وأن تترفع عن الحسد إذا ما رأيت نعمة ظاهرة على غيرك ، فالرازق واحد ، والذي رزقه سوف يرزقك .

وتذكرت يوم جاءه عدد من الأقارب لإقناعه بالموافقة على الدراسة حينها قال لهم بأنه يريد إعداد هذا الولد لمسؤولية العائلة كلها ، بعد أن أموت ويأخذ صاحب الأمانة أمانته ، مؤكدا لهم بأنه ليس ضد العلم ولا ضد المدارس ، ولكن الوضع مختلف بالنسبة لهذا الولد . .ومع صلابة الموقف وصعوبة الظرف حينها تقبّل الأمر بكل أريحية ، وإذا كان قد لمح شيئا من التقصير في العمل لم يكن ليذكرني بقصة المدرسة ، وقصة تنازله عن رأيه الذي كان مصرّا عليه . . لقد كان أبا حنونا ، كريما ، منحني الثقة واعتمد علي ، ورسخ في داخلي حب العمل واحترام الصغير قبل الكبير ، وقد كانت وفاته قاسية بالنسبة لي ، فليس سهلا على الأبن أن يأتي خبر وفاة والده غرقا ، لكن الذي يهوّن الخطب أن الوالد مات وهو في طريق الخير ، وهو يكد على عياله ويرفع من قيمتهم ، رحمه الله رحمة الأبرار .

وجاء وقت الوفاة مصادفا ليوم الأربعاء ، وكان يوم نهاية الاسبوع ، بل ونهاية الدراسة لذلك العام ، حيث لم يبق سوى يومين على الامتحانات النهائية ، وكان الطلاب في العادة لا يحضرون إلى الدراسة في تلك الأيام ، وإنما حضرت أنا ذلك اليوم بغرض مراجعة بعض المواد مع المدرّسين وجاءني الخبر المفجع ، فجاءني شعور آخر التقى مع شعور الفقد والفراق والأسى ، فيوم السبت هو أول يوم للامتحانات ، وأنا الذي قاتلت وتعبت من أجل إقناع الوالد بمواصلة الدراسة ، والتي استمرت لثلاث سنوات من النقاشات والحوارات

والأخذ والرد ، فإذا بالظروف تأتي بصورة غير مواتية ، فهاهي ــ الآن ـ تقف ضدي مرة أخرى ، ولا تسمح لي بأن أبحث عن مستقبلي الأفضل ، الذي بات على المحك ، وينتظر أن تتقاذفه الظروف الزمانية المقبلة ، التي لن تكون مواتية لي ، فعلي أن أعود إلى بداية القصة ، لأعمل في مجال النخيل والمواشي ، ولا مجال للعلم والمعرفة ، فيكفي المرحلة الابتدائية وسنة من المرحلة المتوسطة ، وكل هذا الأمر هان علي وسهّل أمام حادثة وفاة الوالد ، فالأب عز لأبنائه وتاج على رؤوسهم ، فما كان منّي الا ان قرّرت أن أترك الدراسة نهائيا ، وبالتالي فلا معنى للذهاب الى الامتحانات ، إذ لا يتصور أن فاقدا لوالده يستطيع أن يؤدي امتحانا ما ، فمن أين سوف يأتي بالتركيز والحفظ والإجابة الصحيحة ، غير أن عددا من زملائي رفضوا هذه الفكرة من رأسها ، ولم يوافقوا لي بقطع مشوار الدراسة ، وجاؤوني عصر الجمعة وهم الذين تعوّدوا على المذاكرة معي أيام الدراسة في الابتدائية ، ومارسوا معي شتى أشكال الضغط حتى أحضر الامتحانات ، بل أن ثلاثة منهم مرّوا عليّ صباحا وأصرّوا عليّ أن أذهب إلى المدرسة لأداء الامتحانات ، فتوكلت على الله وذهبت معهم ، انطلاقا من أن القضاء قد حلّ ، والوالد قد مات (يرحمه الله) ، وهو في أتم الرضا على إبنه ، ولا أملك الا الدعاء له بالرحمة والغفران ، وكما يقولون :"الحي أبقى من الميّت" ، ولا يحق لنا الجزع والخروج عن النص ، فالموت حق علينا جميعا ، ودخلت الامتحانات بسلاح التوكل على المولى جل شأنه ، وانهيتها في ظروف معقّدة ولكن بنفس راضية بالله وبقضائه وقدره ، واستطعت اجتياز الامتحانات وبتفوق وتقدير "ممتاز" ، فكنت أنا في المركز الثالث على ثلاثة فصول من الأول متوسط ، حتى إنني ويوم ذهبت الى المدرسة لكي أعرف النتيجة وأطلع على الشهادة والدرجات ابتسم لي المدير ، وقال :

ــ أنت مثال لكل الطلاب ، لا يتكرر دائما

فما كان منّي إلاّ شكرته على هذا التقدير وهذا الثناء وقلت :

ـ استاذي هذا الثناء كبير والمديح أكثر من حقي

ـ لا ليس كثيرا فأنت الأول على الصف ، والثالث على الثلاثة صفوف .

ـ أظنك تمزح يا استاذي!

ـ صدقني لا أمزح ، وليس هذا مجال المزاح ، والأوراق والدرجات تثبت ذلك .

بعدها أخذت الشهادة وخرجت من المدرسة ولا أعلم حقا ماذا سوف أعمل ، هل سأواصل الدراسة أم أسحب ملفي وانهي هذه القصة ، خاصة وأن الظروف تبعث على ذلك ، فقلت في نفسي لأترك هذا الأمر الآن ، وعليّ أن أبحث عن عمل ـ غير النخلة والرعي ـ يوفر لي وللعائلة العيش الكريم ، فبعد الوالد صرت أنا المسؤول الأول عن الأسرة كلها ، فهناك أفواه بحاجة الى الطعام ، وأجساد تريد الكسوة ، وأطفال بحاجة إلى الرعاية والدراسة ، فهذا هو قدري الذي لم أخطّط له ، ولم أرسمه ولم أكن أتمنّاه في وقت ما ، فلا أحد يصنع قدره ، ولا أحد يعرف ماذا كتب له اليوم وغدا ، فكانت وفاة الوالد أكبر صدمة واجهتها في حياتي ، إذ نقلتني من واقع إلى آخر ، ولكن بحكم تربيته ـ يرحمه الله ـ لم تكن صعوبات الحياة تعني لي شيئا ، لا استطيع تحمل تبعاته ، فالشقاء والعناء والتعب والسهر هي مفردات يومية من حياتي .

وتبعا لهذا الوضع الصعب كانت الوجهة مع بعض زملاء الدراسة هو العمل في ميناء الدمام (او ميناء الملك عبدالعزيز) ، في فصل الصيف ، فالأعمال هناك متاحة لكل من يريد ، وكنت مجبرا على ذلك ، وهي لا تتعدى عمليات التحميل والتنزيل ، ففي بعض الأيام نقوم بتحميل كيمات ليست قليلة من "الزرنيخ" ، الذي يتم عادة خلطه بالاسمنت الأبيض (النورة)

فيستخدم لإزالة الشعر في الأجساد الإنسانية ، ومن هنا ظهر مصطلح "الطلاء بالنورة" ، والذي يعني عملية إزلة الشعر من الإبطين والعانتين ، ومن ذلك ظهر المثل المعروف القائل :"الإسم للنورة والعمل للزرنيخ" ، في إشارة الى الانتهازية التي تحدث في المجتمع ، فالبعض يعمل ، والبعض يأكل الثمرة . . كما نقوم بتحميل وتنزيل الإسمنت أو الطحين أو الخرفان ، وكان أصعب شيء هو أن تحمل خروفا من السفينة إلى سيارة النقل ، فالخروف بطبعه ثقيل ومتمرد ولا ينقاد بسهولة ، ومع هذا التعب كان الراتب لا يتعدى الـ 7 ريالات في اليوم ، أي 210 ريالات في الشهر ، وذلك في ظل ظروف صعبة وغير نظيفة ولا مساعدة ، فالوقت صيف ، ودرجة الحرارة مرتفعة ، ومعدلات الرطوبة تزيد كلما اقتربنا من البحر ، لكن من خلال هذا العمل والتعاطي مع عينات مختلفة من البشر ، ومن جنسيات مختلفة ، اتيحت لي الفرص لتعلم بعض مفردات اللغة الانجليزية ، والتي هي اللغة العامة لكل تلك الجنسيات ، فهناك جنسيات أسيوية (من الهند والباكستان والفلبين) ، وهناك الجنسيات الأوروبية والامريكية فضلا عن العرب والسعوديين ، فكان هذا العمل خطوة نوعية بالنسبة لي ، إذ صرت أتعامل مباشرة مع البشر ، بعكس الفترات الأولى من حياتي حيث كنت أتعامل مع الكائنات الحية الأخرى ، ولا شك في أن التعامل مع البشر هو بحد ذاته موهبة ، تتطلب المزيد من الصبر والتحمّل ، وقد علمتني التجربة في إقناع والدي بالدراسة ، وإقناع الأستاذ يوسف عيد بأن يسمح لي بالدراسة ليلا ونهارا ، بأن الأسلوب الحسن هو الذي يوصل إلى التأثير في الطرف الآخر ، وفي الميناء وقفت على جملة من الحقائق ، لعل أبرزها طرق تفكير العمالة الأجنبية وتواجدها وتطلعاتها ، فبعض هؤلاء العمال يفكر أن يقضي فترة زمنية قصيرة يحسّن من وضعه المالي ، والآخر يسعى لأن يزيد فترة بقائه في البلاد ، والبعض الآخر يأمل في أن يمتلك بعض المشاريع الرابحة ، دون أن يكون عاملا تحت إمرة كفيل معين .

إن هذا العمل في الميناء لم يكن ليبعدني عن أعمال وانشطة الزراعة (النخيل والماشية) ، لأن دوامي الرسمي في الميناء يبدأ من الرابعة عصرا وحتى

العاشرة ليلا ، وهو ما يطلق عليه "دوام أول ليل" ، مقابل "دوام آخر الليل" ، والذي يبدأ من العاشرة ليلا وحتى السادسة صباحا" ، وهناك "دوام النهار" الذي يبدأ في العادة من الساعة السادسة صباحا وحتى الرابعة عصرا ، فكان اختياري ـ مع زملائي هو "دوام أول ليل" ، ليتسنى لنا فرصة النشاط في المجالات الأخرى ، ففي الصباح الباكر أقوم بالأنشطة المتعارف عليها ، وهي الأنشطة ذات العلاقة بالنخلة والماشية ، فالصيف هو موسم الحصاد ، وموسم الإنتاج ، وموسم قطف ثمار الجهود التي تبذل في الشتاء ، من إعداد النخلة لكي تعطي ، والنخلة إذا أعطت فإنها تعطي بكرم لا حدود له ، وكذلك الحال بالنسبة للماشية ، فهي تعطي الحليب ، الذي يتحول بقدرة قادر الى منتجات غذائية اخرى كاللبن وكذلك الزبادي والزبدة فضلا عن لحوم المواشي وأصوافها .

على ضوء كل ذلك شاع في الأوساط القريبة منّي أني قرّرت ترك الدراسة ، والاقتصار على أعمال "التحميل والتنزيل" في الميناء ، فهي أعمال مؤقتة ، ومستقبلها محدود ، ولا تليق بشخص متفوق مثلي (من وجهة نظرهم بالطبع) ، حينها تداعى أكثر من شخص لمنعي من هذه الخطوة غير المحسوبة ، وكان لسان حال بعضهم ــ كما قيل لي فيما بعد ـ أن الموقف بمثابة ظلم لكل مثابر ، ولكل طموح ، فمن يأخذ المركز الأول على صفه ، والمركز الثالث على دفعته ، ليس مكانه إلا طاولات العلم ، ومنصات التتويج العلمية ، وليس محطّات تحميل وتنزيل الإسمنت والطحين والخرفان والزرنيخ وما شابه ذلك ، حتى أن بعض أفراد العائلة قالوا بفكرة جمع مبلغ مالي لي لكي أواصل الدراسة ، والبعض ذهب إلى مواصلة الاقتراح السابق ، وهو العمل في النهار والدراسة في الليل ، لكن كل هذه الاقتراحات لم تكن مجدية ولا تملك حلا للمشكلة ، والتي تمثّلت في كوني قد بت أعيل اسرة تتألف من عدد من الأخوة والاخوات صغار السن مع الوالدة ، فكان الخيار الصعب هو ترك الدراسة ، ومواصلة العمل في الميناء والزراعة ، وكل ما يكتبه الله صائر لا محالة ، وإذا كانت لي فرصة في هذه الحياة فسوف آخذها ، وأنا بذلك كنت مؤمنا بقضاء الله وقدره ، راضيا بما يقسمه لي ، وكان خياري الوحيد هو الدخول إلى الحياة

العملية ، وأن التفكير في الدراسة بات شيئا من الماضي ، لا يجد له أي مصداقية في الوقت الحاضر ، وهوخيار مؤجل ومتقدم أيضا لاتقبله الظروف الحالية .

وبينما أنا في تنفيذ خياري الذي أجبرتني الظروف على أخذه ، تناهى الى سمعى ان المعهد العلمي الواقع وراء مستشفى الدمام المركزي قد فتح أبواب القبول امام خريجي الابتدائية ، بالتالي فإن الفرصة سانحة أمامي لأن التحق بهذا المعهد ، فأنا أحمل شهادة الأول متوسط ، وهو مستوى أعلى من المستوى المطلوب ، لذا توجهت الى ذلك المعهد في الصباح الباكر ، وكنت أول الذين قدّموا أوراقهم للإلتحاق بالمعهد ، وكانت إجراءات القبول سهلة وغير معقّدة ، فلا تتعدى الامتحان التحريري ، الذي يدور حول مسائل عامة ، ثم مقابلة شخصية يتم تحديد موعدها في يوم آخر ، وهذا ما جرى لي بالفعل ، وجئت الى المقابلة الشخصية جاهزا ، بعد ان لبست ثوبا نظيفا ، مع غترة وعقال ، لم أتعود عليهما ، بحكم طبيعة عملي لا تعتمد على الثوب فضلا عن الغترة والعقال ، وجلست على طاولة الانتظار وجاء اثنان يحملان الجنسية العربية المصرية ، فكان امتحانهم في اللغة العربية فسألني أحدهم :

ـ هل لديك اهتمامات أدبية؟

فأجبته :

ـ إلى حد ما

ـ في النثر أم في الشعر؟

ـ في الشعر ، وأحفظ الكثير من الأبيات ، ولدي قدرة على نظم الشعر ، ولله الحمد .

فالتفت لي أحدهم وهو ينظر لي باستغراب ، وكأنما شكلي لم يعجبه ، وكلامي لم يقنعه ، فقال :

ـ اقرأ لنا بيتا من الشعر مما تحفظ

ـ بيت شعر؟ من أي عصر؟ هل تريد بيتا من شعر العصر الجاهلي ، أم من العصر الإسلامي ، أم من العصر العباسي ، أم من العصر الحديث؟

ــ من أي عصر تريد؟

ــ في أي مجال تريده؟ من شعر الحكمة أم من شعر الغزل ، أم من شعر الهجاء ، أم شعر المديح؟

ــ قل لنا شعرا في الحكمة ، ومن أي عصر ترغب

ــ يقول زهير بن أبي سلمي :"ومهما تكن عند امريء من خليقة . . وإن خالها تخفى على الناس تعلم" .

بعد كل هذه الإجابات ، وبعد هذا الحوار السريع الذي لم يتجاوز الخمس دقائق قال لي أحدهم :" انت ناجح بنسبة 100% راجعنا غدا لإتمام إجراءات التسجيل" ، حينها شعرت أن الأمل قد فتح لي ، وأن كل مشكلاتي تسير على طريق الحل ، وسوف أدرس في المعهد واحصل على شهادة ، وسوف تعقبها وظيفة حكومية مرموقة ، بالتالي فإن من صبر ظفر ، وأنت لا تعلم ما كتب لك ، إلاّ أن هذا الأمل وكل هذه الأحلام ضاعت أو تاهت في مهب الريح ، حينما جئت في اليوم التالي إذ قابلني المصري الذي سبق وأن سألني عن الشعر بأن القبول بات متعذرا ، لأن تعليمات جديدة جاءتهم بتوقف قبول خريجي الابتدائية ، وقصر القبول على حملة الشهادة المتوسطة ، فاعتذر لي

ولمست من اعتذاره الصدق ، وأجريت معه محاولات عديدة ولكن بلا فائدة ، فالتعليمات صريحة في هذا الشأن ، فعدت إلى عملي ضمن ثنائية الميناء والزراعة ، وكأنما قدري أن أكون على المزيد من العلاقة مع الكائنات غير البشرية كالنخلة والماشية ، لتأتي الباخرة والشاحنة ، وتوابعهما من الأسمنت الخشب والخرفان والزرينخ ، رجعت منكّس الرأس واهي العزيمة متململا أشعر وكأن الدنيا واقفة ضدي ، وأن قدري أن أعيش فقيرا ، وأن حالي لا يتغير . .انتابني شيء من الإحباط ، استمر معي طويلا ، وفي كل مرة كنت أقاومه وأسعى للقضاء عليه ، إذ أن خاطرة نفسية كانت تخالجني بين فترة وأخرى ، عادت لي في هذا الوقت ، وصارت تذكّرني بأن الحياة مستمرة ولا تتوقف ولا يمكن لها أن تتوقف ، والفرص ليست بأيدينا دائما فهي تأتي بغتة وبدون تخطيط ، وقد تذهب بدون تخطيط ، و(ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لاتشتهي السفن) ، وقد يكون الحتف في الأمنية (رب امريء حتفه فيما تمنّاه) وإن مع العسر يسرا ، ودوام الحال من المحال ، فاليوم أعمل في الميناء وغدا في مكان آخر .

وبعد فترة ليست طويلة ، وفي ظل هذه الظروف وما بين حالة من التململ وحالات من الرضا حدثني جارنا وقريبنا "حبيب محمد علي " بأن المعهد الصحي يستقبل طلاب الكفاءة ، ولا يشترط سوى النجاح في مواد الرياضيات واللغة الانجليزية ، حتى لو كانوا مكملين في المواد الأخرى كمواد اللغة والدين ، وكانت هناك عقبة امام القبول في هذا المعهد وهي أنهم يطلبون شهادة الثاني متوسط على الأقل ، في حين أنا لم أكمل سوى الأول متوسط ، ولازلنا في فصل الصيف ، لكنه (أي حبيب محمد علي) بادر ـ كما فهمت فيما بعد ـ وقال لهم :"إن هذا الشخص متفوق ، ويمكنكم أن تخضعوه لامتحان تحريري أو حتى شفهي ، فسوف تجدونه متميزا ، وصالحا للعمل ، ولن تتأسفوا على استقطابه" ، وشرح لهم تفاصيل قصتي في المرحلة الابتدائية ، وظروفي الحالية الآن ، وقام بمخاطبة مدير المعهد بهذا الشأن ، الذي قام بدوره بمخاطبة مديرعام الشؤون الصحية في المنطقة الشرقية للموافقة على هذا الاستثناء ،

فتمت الموافقة . . لقد قام بجملة إجراءات لم أكن أعلم بها حينها ، وحينما جلب الاستثناء والموافقة حضرت الامتحان التحريري واستطعت تحقيق المركز الثالث من بين 160 طالبا ، جميعهم يحمل الشهادة المتوسطة ، فتم تحديد موعد الامتحان الشفهي ، أو المقابلة الشخصية ، وعدت إلى المنزل على أمل أن تنجح هذه الخطوة هذه المرّة ، وكان سلاحي في ذلك هو التفاؤل ، انطلاقا من مقولة :"تفاءلوا بالخير تجدوه" ، وأنا ـ وللحق ـ لم أكن أملك غير هذا السلاح في ظل هذه الظروف التي تبعث على الإحباط واليأس والقنوط والموت البطيء ، وهنا تذكرت مقولة لوالدي يرحمه الله تقول بأنك "لو تجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش" ، فقلت في نفسي لقد تجاوزت نصف الطريق ، وبقى الامتحان الشفهي الذي سوف ندعه إلى توفيق الله وعنايته ، وإذا كان لي نصيب فسوف آخذه ، ولن يكون بمقدور أي أحد يمنعني .

وفي اليوم المحدد ، وكما عملت في المرة السابقة ، فقد لبست ثوبا جديدا ، واستعرت حذاء ذا لمعة ، ووضعت الشماغ الأحمر مع العقال على رأسي ، وكنت أسير ورأسى متجه للأمام بصورة عمودية ، وكأني مصاب بشيء في الرقبة ، وكل ذلك خشية أن يسقط العقال من على رأسي فتفشل العملية كلها ، وذهبت الى المكان المحدد ، وجرى الامتحان الشفوي والذي كان غريبا عجيبا ، ينطوي على المزيد من الخداع ، ويبدو أن هدفه معرفة بعض المواصفات التي تؤهل أي شخص للعمل في المجال الصحي ، فقد وضعوا أمامي ثلاث علب لثلاثة أنواع من الدخان ، وهي :"كنت ، ونستون ، جريفن آي" ، فدعاني أحدهم لاختيار ما أحب من الدخان ، مؤكدا بأن لا مانع لديهم من التدخين في القاعة ، هنا دارت في خلدي فكرة ، ومر بخاطري تساؤل سريع ، هو إننا في معهد صحي ، يسعى لتخريج صيادلة وممرضين ، واخصائيي أشعة وما شابه ذلك ، هدفه اشاعة الصحة العامة ، هل من المعقول أن يتناول هؤلاء شيئا يرونه ضارا بالصحة ، فما كان منّي إلا أن قلت لهم وبسرعة :

ـ شكرا فأنا لا أتعاطى التدخين ، بل لا أحب التدخين والمدخنين .

فردّ أحدهم متسائلا :

ـ ولا حتى "القدو" ، أو "النارجيلة" ، أو "الشيشة" ، وما شاكل ذلك؟

ـ كل هذه أنواع وأشكال للتدخين لا تختلف عندي عن السيجارة ، لا أتعامل معها ولا احضر مجلسا يتم تعاطي التدخين فيه ، لأنها أشياء ضارة بالصحة العامة ، ويفترض على الواحد منّا الابتعاد قدر الجهد عن كل شيء يضرّه .

وقد كان حدسي دقيقا في هذا الأمر ، إذ عرفت فيما بعد أن هذه العملية بمثابة اختبار ، وهي جزء من الامتحان الشفوي ، وعرفت أيضا أنهم لايقبلون المدخنين ، وكانت نظرتي في محلّها . . وبعد ذلك بادرني أحدهم بسؤال غريب للغاية :

ـ ما صفات الماء الصالح للشرب؟

فكان جوابي :

ـ الماء الذي لاطعم له ولا لون ولا رائحة

فرد أحدهم :

ـ وما الدليل على ذلك؟

ـ ألا ترون المياه الجارية ، مياه الأنهار بالتحديد لمّاعة ، لذلك يشربها الناس ، بعكس ماء البحر فهو ـ مع طهارته ونظافته ـ إلا أن طعمه مالح ، فهو غير صالح للشرب .

فما كان منهم الا ان صفقوا لي جميعا .

ولأنني كنت أتكلم معهم باللغة العربية الفصحى ، سألني أحدهم وصادف انه مدرس لغة عربية عن سبب حبّي للغة العربية فرددت عليه :

ـ أنها لغة القرآن والإسلام ، ولأنها لغة جميلة تنسجم مع الشعور الإنساني ، ولأنني اطمح أن أكون كاتبا صحفيا في المجال السياسي .

فقال لزملائه أعضاء الفريق المحاور :"إن هذا الشاب يتحدّاني ، فدعوني أتحاور معه لبضع دقائق" ، فوافقوا وقد بدت السعادة على محيّاهم ، فبادرني :

ـ اعطني بيتا من الشعر .

فرددت عليه كما رددت على المصري في المعهد العلمي :

ـ بيت شعر من أي عصر؟

ـ كما تحب ، فكلّي آذان صاغية .

ـ إلى أين يافارس الخلد تمضي . . وما الشوط حين يموت الجواد

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ اقصد أن والدي مات غرقا في البحر ، شهيدا في طلب رزقه ، من أجل أطعامي أنا وإخواني وأخواتي ، وأنا أفخر به وأعتز ، وهو قدوتي في الحياة ، في كل شيء ، وأجد أن حياتي بدونه لا قيمة لها ، فهو معنى الحياة بالنسبة لي .

ـ لو سألتك ما قيمة الإنسان؟

ـ اقول لك :"قيمة كل امريء ما يحسنه" .

ـ إنها لحكمة ، من أين أتيت بها ومن قالها ، ومن الأصل أنت من أين؟

ـ أنا من جزيرة جميلة اسمها "جزيرة تاروت" ، وهذه الحكمة من أوليات ثقافتنا الدينية العامة ، كلمة منسوبة للإمام علي عليه السلام ، ولو سألت أي طفل أو شاب من تاروت لقال لك مثل هذا الجواب ، باللفظ أو بالمعنى .

ـ لم نفهم ما تعني بالثقافة الدينية العامة؟

ـ الثقافة العامة هي الثقافة المتاحة للكل ، ويعرفها الجميع ، بينما الثقافة الخاصة هي التي يتقنها ويعرفها عدد من المعنيين ، فكلنا يعرف الصلاة والصيام والحج ، لكن مسائل تصادفنا نضطر لأن نسأل العلماء عنها ، فهم أعرف منّا بها ، والحال نفسه ينطبق على علوم الطب والهندسة والفلك وما شابه ذلك .

ـ لو سمحت إعطني بيتا من الشعر في الحكمة من العصر الجاهلي؟

ـ وأعلم مافي اليوم والأمس قبله . . ولكنني عن ذكر ما في غد عمي

ـ أي الكتب قرأتها؟

ـ قرأت جواهر الأدب ، وقطر الندى وبل الصدى ، وأواظب على قراءة مجلة العربي الكويتية .

ـ اعطني بيتا من الشعر في الغزل من العصر الأموي

ـ واستمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت . . وردا وعضت على العنّاب بالبرد

ـ لمن هذا البيت من الشعر؟

ـ يزيد بن معاوية

ـ بيت آخر لو سمحت

ـ يقول جرير :إن العيون التي في طرفها حور . . قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

واستمرت المحاورة بهذه الصورة على هيئة سجال بيننا ، كلّما طلب منّي شيئا اجبته ، فسألني عن معنى "العنّاب" ، فقلت له :"اطراف الأصابع" ، حينها ذهب الى أبعد من ذلك ، بأن طلب مني إعراب البيت التالي :"عسى الكرب الذي امسيت فيه ، يكون وراءه فرج قريب" ، فقمت بإعرابه مفصّلا فقلت لهم :"عسى : فعل ناسخ من أفعال الرجاء . . الكرب : إسم عسى مرفوع بالضمة الظاهرة . .الذي : اسم موصول مبني في محل نعت للكرب . .أمسيت : فعل مضارع مبنى على الفتح ، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل . . فيه : الفاء حرف جر ، والهاء ضمير متصل في محل اسم مجرور . . يكون : فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة . . وراءه : ظرف مكان منصوب بالفتحة الظاهرة . . فرج : فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة . . قريب : نعت مرفوع بالضمة الظاهرة) . . والجملة الفعلية في محل نصب خبر عسى .

فما كان منه إلا أن التفت الى زملائه قائلا :"إن بقيتم على مقابلة هذا الشاب فلن تقابلوا أحدا غيره ، فقد تحدّاني وفاز بالتحدّي ، واوصي بقبوله في المعهد فورا" . . فكان اتفاق الجميع على القبول ، فالتحقت بالمعهد ، لابقى فيه ثلاث سنوات ، أدرس الصيدلة .

وبذلك أكون قد انهيت الدراسة (خمس سنوات ابتدائي بدلا من ست سنوات ، سنة واحدة متوسطة بدلا من ثلاث سنوات . . ثلاث سنوات دراسة بالمعهد الصحي تخصص صيدلة" . . بذلك انهيت متطلبات 12 سنة دراسية في 9 سنوات ، والفضل لله .

بعد خروجي من المقابلة ، وقبولي في المعهد ، وقبل التحاقي وجلوسي على المقاعد الدراسية عاد مسلسل الذكريات ، فذكرت عددا من أهلي حينما جاؤوا يعزوني في وفاة والدي فقد قالوا لي كلاما نظريا ، وهي أن الله جل شأنه لا ينسى عباده ، وأن الحياة ضيقة ما لم نتسلح بالأمل ، ونسير بموجبه في حياة الدنيا . . لقد كنت أجد تلك الكلمات وأراها كلمات فارغة جوفاء ، لكن الوضع الحالي ، وانتقالي من حال إلى حال ثبت لي صدق هؤلاء الناس ، وحرصهم على مسقبلي ووضعي العلمي والعملي ، وما أجمل من أن يكون الواحد منا جزءا من هذا المجتمع ، يشعرون به ويشعر بهم .

ـ 4 ـ

لقد كان الالتحاق بالمعهد الصحي إنجازا حقيقيا ، وخطوة هامة في مسيرتي الحياتية ، ومثلي مثل من دخل معركة مسلحة يتوقع فيها الهلاك إذا به بعد جهد جهيد وطول معاناة يأتيه النصر ، وتنفرج الأمور بصورة غير متوقعة ، ولامخطط لها ، إني لأقطع جازما بأن الله جل شأنه نصرني على الظروف الصعبة والعقبات الكؤود ، التي حالت دون أن أدخل المضمار العلمي ، ابتدأت المسألة في اقتناع الوالد بالتوجه الدراسي ، لهذا السبب تأخر امر التحاقي بالدراسة عن أبناء جيلي أكثر من 6 سنوات ، ثم جاءت الظروف الحياتية لتمنعني من مواصلة الدراسة ، فلم أكمل سوى الأول متوسط ، وفجأة إذا بالعقبات تتذلل واحدة بعد واحدة ، حينها عرفت حقيقة الآية الكريمة (إن مع العسر يسرا) ، واقتنعت حينها بأن الصبر مفتاح الفرج ، وأن اليأس من روح الله وفرجه هو الكفر بعينه ، ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

فالمعهد الصحي وفرّ لي ـ بعد التحاقي به ـ سكنا وأكلا وراتبا شهريا قدره 200 ريال ، خلال الثلاث سنوات الدراسة ، في ظل ظروف هادئة ومواتية ، ووصورة واضحة لمستقبل أفضل ، مقابل 210 ريالات أتقاضاها من العمل في الميناء في ظل ظروف صعبة للغاية ، بدون أكل ولا بدلات للسكن أوالنقل ، فضلا عن جملة من المعاناة ، والتعب في التعامل مع كائنات بشرية غريبة ، وكائنات غير بشرية أغرب ، وفي المعهد وفّقني الله لدراسة الصيدلة وتخرّجت بنتيجة قوامها 96% لأعمل على وظيفة "فنّي صيدلة" ، مع مجموعة من السعوديين في هذا التخصص ، فكانت هذه النتيجة هي مفتاح أمل لحياة أفضل ، وواقع جديد ، يختلف بالطبع عن حياة المعاناة في النخل والرعي والميناء ، وما تعنيه هذه المواقع من ذكريات مؤلمة من الجهد البدني والنفسي ، وليس أقلّها انعدام الرؤية لما سيكون عليه اليوم والغد وبعد الغد .

كنت مدفوعا في كثير من مواقفي من واقعي العائلي ، ووضعي المادي ، وحياتي التي تميل الى البؤس والفقر ، لذلك كان أول قرار اتخذته فور التحاقي بالعمل ـ بعد التخرّج ـ هو نقل عائلتي من الحياة البسيطة الفقيرة القريبة من الأغنام والأبقار الى منزل حديث وإن كان مستأجرا ، ثم قمت بإكمال نصف ديني ، وتزوجت ، وأدخلت جميع إخوتي وأخواتي إلى المدارس ليواصلوا حياتهم العملية بصورة أفضل مما سرت عليه ، وكان أول أهدافي هو أن أجنّبهم وابعدهم عن المعاناة التي مررت بها في هذا السبيل .

إن الالتحاق بالمعهد ، والحصول على الشهادة ، ومن ثم العمل في الصيدلة ، كانت خطوة هامة للانتقال من عالم محدود ، في المزرعة والحظيرة والمنزل إلى عالم أرحب ، وواقع مختلف ، خاصة وأن قرارا رسميا دفع بهذا الاتجاه ، حيث بات لزاما علي أن أقيم في الرياض العاصمة لفترة من الزمن كمتدرب ، بحكم أن التخصص صحي ، ولا يجوز لأي فرد الدخول في هذا المجال دون المرور بفترة تدريبية مكثّفة ، تحدث حالة من التأصيل للمعلومات النظرية ، التي حصلنا عليها خلال دراستنا في المعهد ، على أن يتم ـ بعد إنهاء فترة التدريب ـ نقلي إلى موقع عملي ، وقد أتاحت إلى الرحلة إلى الرياض عددا من الفوائد ، تضاف إلى جانب التأهيل المهني ، مثل معرفة العديد من أبناء الوطن قدموا من مناطق مختلفة من أنحاء البلاد ، فكان من زملائي طلاب من الرياض وجدة وابها وجازان والقطيف والقصيم ، كنا نتدرب في مكان واحد ، يجمع ما بيننا وطن واحد ودين واحد ولغة واحدة .

وذات يوم كنت أمشي مع بعض الزملاء في منطقة البطحاء ، إذا بي أسمع صوتا عاليا ينادي عليّ بالإسم ، في البداية شككت في الأمر ، فليس لدي معارف سابقة موجودة في الرياض ، ولكن النداء تكرّر مرة ومرتين وثلاثا ، فما كان منّا أن دققنا النظر وأصغينا السمع ، فاتجهنا لمصدر الصوت وكان قادما من فندق تاج الجديد ، ومن أحد أدواره العليا ، إذ وجدنا شخصا من أهالي تاروت يلوّح لنا بيده ويطلب منا المجيء له في الفندق ، وعرفنا من طريقة صوته

أنه في ورطة ، وأن ثمة خطبا قد حلّ به ، وزاد من يقيننا بهذا الأمر أن قال لنا بصوت مرتفع :"الحقوني أنا محتجز في هذا الفندق" ، فما كان منّا الا أن توجهنا صوب الفندق ، وطلبنا مقابلته ، وتم لنا ذلك ، إذ أوضح لنا بأنه "مسجون في هذا الفندق ، ولن يفرج عنه حتى يسدّد 500 ريال مترتبة عليه لإدارة الفندق ، وهو في الوقت الحاضر لايملك المبلغ ، فما كان منّا الاّ ان قمنا بدفع المبلغ المترتب عليه ، وأنهينا هذا الاحتجاز ، وأخذنا صاحبنا ليسكن معنا ، فبات ليلة واحدة فقط ، وانطلق في الصباح الباكر مع أول رحلة قطار من الرياض إلى الدمام ، ولما عدنا بعد إنهاء مهمتنا في الرياض ، اذا بالخبر شاع بين الناس في تاروت ، خصوصا المقربين منا مفاده "انا فلانا ـ وهو أنا ــ قد فك أسر فلان في الرياض ، ولولاه ـ بعد الله ـ لبقى في السجن أمدا طويلا" ، ولم يقل أحد بأنه كان محجوزا في فندق ، وتبينّ أن أن صاحبنا بعد أن سدد الـ 500 ريال إلى أخي لم يتوقف عن ذكر القصة ، وعرض الموقف ، بل راح في مجالسه الخاصة يسرد تفاصيل قصته ، وتفاصيل موقفنا معه ، وفي كل مرة يثني علينا ويشكرنا ، وهو بهذا الفعل قد حقق لنا سمعة طيبة ، جزاه الله خيرا ، رغم أننا لم ندفع شيئا ، فما دفعناه عاد لنا بعد فترة قصيرة جدا .

حينما انتهت الفترة التدريبية ، كنت أتوقع أن تكون وظيفتي في القطيف ، أو في الدمام أو الخبر على الأقل ، إذا بي أفاجأ بأن قرار التعيين اقتضى أن أتعين في منطقة الجنوب ، و ولم يكن هذا القرار إيجابيا بالنسبة لي ، بل كنت أعتبره "كارثة" ولكن شاءت الظروف أن لا يتم تنفيذ القرار ، وذلك لوجود "صك الإعالة" الذي كان معي حيث يثبت أنني أعيل خمس أخوات وإثنين من الإخوة مع والدتي ، فكان هذا الصك مفتاح فرج لي ، ومنقذا لي من هذا القرار الذي كان سيبعدني عن عائلتي لمدة غير محدودة ، ولعل أهم ميزة في هذا الصك أنه كان "صكا" صريحا لا لبس فيه ، وحين قدمته كان موثقا من الجهات المعنية ، وبعد محاولات حثيثة استمرت اسبوعين جاء قرار الموافقة على تعييني في المنطقة الشرقية ، وتحديدا في مستشفى الصدر بالدمام بموجب عقد عمل لمدة ست سنوات أي ما يعادل ضعف السنوات التي درستها

في المعهد ، وصادف ان جئت الى المدير نفسه الذي طلب منه حبيب محمد علي أن يتوسط لي في الشؤون الصحية ، كي التحق بالمعهد الصحي بشهادة الاول متوسط ، وخلال هذه السنوات كان يصرف لنا بدل عدوى قيمتها 140 ريالا شهريا ، كانت كافية لتموين المنزل من اللحم والدجاج والفاكهة والسمك لمدة شهر كامل ، وخلال فترة العمل ، كنت ـ والشاهد الله ــ قد تفوقت على أقراني ، ونلت ثقة المديرين في المستشفى ، لدرجة لا توجد دورة إلا ويتم انتدابي لها ، واستفدت من فترة وجودي في المستشفى كثيرا كوني السعودي الوحيد حينها ، وقد حظيت بعناية خاصة ، إذ تم ارسالي للدراسة في معهد الادارة للحصول على دبلوم اللغة الانجليزية ، وذلك على حساب وزارة الصحة وقد تعزّز وضعي حينما تم فصل مستشفى الأمراض الصدرية عن باقي المستشفيات فصارت لنا ميزانية خاصة ، وكنت انتدب مرة كل شهر الى الرياض لجلب تلك الميزانية ، مع بدل العدوى ، والراتب الشهري .

وإذا كان صك الإعالة قد ساهم ـ بتوفيق الله ـ في تعييني في المنطقة الشرقية ، فإنني وبفضل هذا الصك ـ بعد توفيق الله وفضله ــ حصلت على منحة حكومية ، وهي عبارة عن قطعة ارض في الخبر بعتها بـــ 20 الف ريال .

وخلال هذه الفترة جرت حوادث كثيرة ، وهذه هي طبيعة العمل في النشاط الصحي ، ولعلي أتذكر أن سيدة من جزيرة تاروت جاءت مع ولدها الصغير ، وكان يتيما قد مات والده قبل أشهر في موقع لإحدى شركات حفر الآبار ، وكان هذا الطفل يعاني من ضيق في التنفس ، وكنت على وشك الخروج من المستشفى والانتقال الى المنزل ، فما كان منّي منذ رأيت ذلك المنظر المؤلم أن طلبت من زميلي الذي كنت سوف انتقل معه الى تاروت بأن يخبر أهلي بأني سوف أتأخر ، فجلست مع هذه السيدة وولدها حتى صباح اليوم الثاني ، وعاد الى أهله ، لكن بعد فترة قصيرة من الزمن ، وصلني خبر أن هذا الطفل انتقل الى رحمة الله ، بعد نوبة حادة من الربو ، وكانت والدته تنادي

بإسمي "اين فلان . . اين فلان؟" . . وكانت وفاته مؤلمة لي ، كما كانت مؤلمة لأهله ، فهو صغير ويتيم قد مات أبوه قبل أشهر .

ووذات يوم جاءني اتصال هاتفي من مستشفى القطيف المركزي ، يفيد بأن أحد المرضى قد خرج للتو من غرفة العمليات ، وبعد أن أفاق من التخدير أصرّ على لقائكم مهما كانت الظروف ، وحسب قوله أنه يخاف أن يموت ولا يلتقي بكم .

سألته :

ـ من يكون هذا الشخص ، وفي أي غرفة وفي أي دور هو؟

فرد علي :

ـ إنه في الدور الثاني غرفة 5 واسمه ابراهيم الحواج

ـ شكرا ، سوف أزوره اليوم ، أو اتصل به هاتفيا ، فأنا أعرفه وأعرف أبناءه ، فهو صديق الوالد ، وطالما زارنا في منزلنا

ـ على بركة الله

وعلى ضوء هذه المكالمة انطلقت الى الحاج ابراهيم الحواج ودخلت عليه فإذا هو يبتسم ابتسامة عريضة ، لفتت نظر الحاضرين لعيادته ، حتى أن أحدهم قال لي :"صار لنا ساعة نحاول فيه أن يبتسم فلم نستطع ، وما أن جئت انت حتى انفتحت اساريره ، وعلت البسمة وجهه" ، فما كان مني الا ان قلت له :"الحمد لله على السلامة ، معافى ونهاية السوء إن شاء الله" ، فرد علي :

ــ الله يسلمك ويحفظك ، لقد كنت أول إسم أذكره بعد افاقتي من التخدير (البنج) ، كما كنت آخر إسم الهج به قبل ان أدخل في غيبوبة العملية الجراحية التي خضعت لها .

ــ على هذا أنا كنت حاضرا في تفاصيل العملية الجراحية ، وربما حلمت بي وأنت تحت تأثير التخدير ، ولماذا أنا ولم يكن أحد من أولادك أو اصدقائك ، فأنا لا أعدو أن أكون إبنا صغيرا لصديقك الله يرحمه .

ـ نعم هناك سر أريد أن أشرحه لك ، ذلك لأنني رأيت شخصا أعرفه وتعرفه أنت أيضا ، كان فقيرا ، بل مسحوقا من الفقر ، اضطرته الظروف في بعض الأحيان لأن يصبح "شحاذا" يمدّ يده الى الناس ، هذا الشخص تفاجأت به يوم إجراء العملية وكان ضمن الطاقم الطبي المعالج ، حتى إني سألته عن السبب الذي جاء به الى هذا المكان والظروف التي أوصلته الى ذلك وهو فقير تحل عليه الصدقة ، فقال لي :"سعيد التاروتي" فصرت إصغي الى إسمك وأسمعه يتكلم لكني لم اذكر شيئا غير الاسم ، وحينما أفقت من غيبوبتي طلبت من المحيطين بي الاتصال بك ، فأنا أريد أن أعرف قصة هذا الفقير الذي بات ممرضا .

فما كان مني الا ان قمت بشرح القصة ، لأبينّ له الاسباب وراء ذلك وقلت له اني أعرف هذا الشخص ، وهو "عليوي ابراهيم" ، فقد رأيته في السوق يشحذ ، وثيابه رثّة ومنظره مقزّز وسألت عنه فأخبروني بقصته التي تبعث على الأسى ، فأهله يسكنون في "عشّة" لا تقيهم البرد والحر ، وتفتقر حياتهم لأبسط المقومات التي لا يمكن وصفها بأنها حياة طبيعية ، وهو ـ مع ذلك ـ استطاع ان ينهي دراسة الكفاءة المتوسطة ، وكانت كفيلة بأن تفتح له مجالا للعمل في مجال ما ، ولم أقم بشيء سوى أنني كلمت مدير المعهد الصحي ، لأن يفتح المجال لهذا الفقير ، وتتاح له فرصة الدراسة فلعل الله يؤجرنا بذلك فوافق وتفاعل وطلب منّي أن استدعيه ، فكان له ما طلب ، والتحق بالدراسة بعد أن

أنهى اجراءات القبول ، وتخرّج وحاز على شهادة في التمريض ، فصار ممرضا ، وكان أول قرار اتخذه مع أول راتب حصل عليه ان نقل عائلته من "العشّة" الى منزل مستأجر ، ولا يزال يكافح ويعمل ويجد ، ومثل هذا الشخص يثمر فيه المعروف ، فعلى الرغم من أنني لم أعمل له شيئا كبيرا ، سوى حديث مع مدير المعهد لم يزد عن خمس دقائق إلا أنه ــ جزاه الله خيرا ـ يبادلني تجاه ذلك الموقف بالمزيد من التقدير والاحترام ، وما يزال يكرر بأنه لولاي لما كان هو في هذا الوضع ، وأنا اشكره مرتين ، المرة الأولى أنه امتدحني وشكرني ، والمرة الثانية انه صار عنصرا صالحا في المجتمع ، وأنا في هذا المجال سعيد (بالاسم والفعل) لسببين ، السبب الأول : إنني ساهمت ـ بجهد بسيط ـ في انتشال عائلة بأكملها من الفقر والضعف وسوء المصير ، والسبب الثاني : أنني رأيت صديق والدي سعيدا وهو يسأل عنّي ، واعذرني لم أعلم أنك مريض ، ولو علمت لكنت زرتك ، فهذا واجبي .

وبينما أنا أتحدث عن قصة "عليوي ابراهيم" اذا به يدخل علينا ويقطع حوارنا ، وراح يخاطبني :

ــ عمي سعيد أنت هنا؟

ـ اهلا وسهلا ومرحبا

بهذا الترحيب اجبته وإذا به يضيف قائلا :

ـ لقد كنت أشرح للعم ابراهيم قصة دخولي قطاع التمريض ، وكيف أنك ساعدتني ، فقد كان مصرا أن يعرف "السالفة كلها" لكنه دخل في غيبوبة التخدير ، فلا يبدو أنه سمع منّي شيئا ، وحتى عندما أفاق لم أتمكن من رؤيته كي اشرح له القصة ، وما دمت قد جئت فأرجوك اشرح له ، فهو ما أن سمع بإسمك حتى طالته حالة من الحزن ، وكاد يبكي ، وحينما سألت أولاده عن

ذلك قالوا لي :"ان سعيدا هذا هو ابن اعزّ اصدقاء الوالد ، والذي كاد أن يلحق به حينما سمع عن وفاته غريقا ، ولا يزال يذكره بخير ، ويستعرض ذكريات جميلة معه" .

فما كان منّي الا أن رحبت بـ "عليوي" وقلت له :" أنت إنسان تستحق كل الخير ، ولا أظن أني عملت شيئا اضافيا ، وإنما هو نصيبك وحصلت عليه ، ويكفي أن العائلة التي تتحمل مسؤوليتها سعيدة بذلك ، وبسرعة متناهية خطر على بالي "حبيب محمد علي" الذي كان له الفضل ـ بعد الله ـ في دخولي مضمار الصيدلة ، والعمل في هذا المجال ، وأنقذني ـ بفضل الله ـ من حياة التعب والإرهاق والحياة الشاقة ، وساهم بذلك في نقل كافة أفراد العائلة ، وكلهم أيتام من حياة البؤس والفقر الى حياة أفضل ،

هكذا هي أحداث الحياة تتكرر من واحد إلى آخر ، ربما بصيغ متشابهة ، أو متقاربة ، وسبحان من أجرى حاجات الناس عند بعضهم ، وقديما قالوا :"حاجات الناس إليكم من نعم الله عليكم" .

ـ 5 ـ

حينما شهدت البلاد طفرة اقتصادية بفعل ارتفاع أسعار البترول ، ارتفعت معدلات السيولة في البلاد ، وحلّت في أوصال الدورة الاقتصادية الملايين من الريالات ، التي تم تجنيد جزء كبير منها للتنمية العمرانية ، التي غزت كل شيء ، من البحر الى البر ، وطالت كل شيء قائم لتحيله الى مخططات ومساكن جديدة ، وقد نشط صندوق التنمية العقاري ووسّع نطاق خدماته التمويلية ، وكان دوره متمثلا في تقديم القروض للمواطنين بغرض البناء ، ونال كثير من المواطنين نصيبهم من هذه الخدمة ، وحصل العشرات منهم على قروض عقارية تتروح قيمة القرض بين 200 ـ 300 الف ريال ، وهو مبلغ ــ في وقت ما ـ كان كافيا لبناء منزل بمواصفات عالية .

ولكوني واحدا من هؤلاء الناس وجدت أن من حقي أن امتلك منزلا ، وأعيش مثلي مثل غيري من الناس ، فلا فرق بين عباد الله ، والنعمة إذا نزلت فهي تشمل الكل ، وهنا دارت في خلدي جملة من المقترحات والمسائل ، وأنا أرى العديد من الناس يملكون المنازل ، فمن امتلك أرضا تقدذم إلى صندوق التنمية العقاري وحصل على المبلغ المطلوب وبدأ في البناء ، وبعد سنة أو سنتين امتلك منزلا ، وأنقذ نفسه من معاناة الإيجار ، أو انتقل إلى منزل جديد ، فكان سوق البناء والمقاولات مزدهرا ويسير بوتيرة تصاعدية لافتة ، تكاد لا تتوقف ، وتبعا لذلك ازدهرت حركة النشاط والعمل لدى البنائين المحليين أو ما تعارف عليه بـ "اساتذة البناء" ، فكل بنّاء يسمى "استاذا" ، إذ صاروا يتسابقون على الحصول على البيوت وبنائها ، وكانت بينهم منافسة شريفة وحادة وواسعة ، وكل واحد منهم منهم يعمل بيده ، وتحت إدارته ثلاثة أو أربعة "اساتذة" ذوي مرتبة أقل يطلق على الواحد منهم "استاذا معاونا" ، يعمل كل واحد منهم في منزل ، وتحت إدارته عشرة عمال على الأقل ، وتعتمد طريقتهم

في العطاء والكسب على الأجر اليومي ، فكل واحد يعمل يأخذ أجره باليوم ، وهذا شامل للجميع ، فيصل الأجر اليومي إلى 250 ريالا للأستاذ الأول ، و200 ريال للاستاذ المعاون ، و150 للعامل المميز ، و60 ريالا للعامل العادي ، وهذا الراتب لا يشمل أي مسمى للبدلات المتعارف عليها ، إذ لا يحصل العامل في البناء ـ مهما كانت رتبته ـ على تأمين صحي ، ولا تأمين اجتماعي ، ولا بدل نقل أوسكن ، ولا إجازات اسبوعية أو سنوية ، وهذه الطريقة اعتمد عليها الأهالي منذ سنوات ما قبل النفط ، وما قبل التقنية أيضا ، وساروا عليها خلال سنوات قليلة ما بعد النفط ، وبقي هؤلاء يعملون بهذه الصيغة من الأجر ، وبنيت منازل عديدة بهذه الآلية ، واحدثت انتعاشة لعدد كبير من الأسر ، إذ أن من لم يجد له عملا في أي مكان يمكن أن يلتحق بواحد من الاساتذة البنائين ، ومن يريد تحسين وضعه مؤقتا يقوم بالعملية نفسها أيضا ، وكانت تلك فرصة لطلاب المدارس الذين يعملون في الإجازات السنوية والإسبوعية فيتحسن وضعهم الشخصي . .وهذا الوضع ــ بهذه الطريقة ــ يختلف عن العمل في الشركات والدوائر الحكومية ، فدوام العامل هنا خمسة أو ستة أيام في الاسبوع ـ بدلا من سبعة أيام ـ وله الحق في التمتع بإجازة اسبوعية مدتها يوم أو يومان مدفوعة الراتب ، وإجازة سنوية تصل إلى شهر أو أكثر مدفوعة الراتب أيضا ، فضلا عن التأمين الصحي ، والتأمين الاجتماعي ، الذي يعد ضرورة للعامل في فترات ما بعد التوقف عن العمل والتقاعد ، ولأهله بعد وفاته ، لذلك لم تشأ الظروف الاجتماعية والاقتصادية أن يبقى هذا النمط القديم من العمل ، إذ لم يعد صالحا في ظل دخول الشركات والمقاولين ، بالنمط الجديد ، حيث ساهموا في انحسار دور اساتذة البناء المحليين ، فالبعض منهم احترم نفسه مبكرا وسرّح عماله وأغلق بابه ، بينما آخرون أعلنوا عن تقاعدهم التام لكبر السن أو لقلة العمل ، وأما من كان قادرا على العمل فقد التحق بمكان آخر من العمل في الحكومة أو في القطاع الخاص ، في بيئة عمل أفضل وأكثر راحة ، وشاءت الاقدار لبعضهم أن يكون مفلسا ومديونا ، فيما عدا فئة قليلة منهم استجابت لمقتضيات التطور فتحوّل الواحد منهم من أستاذ للبناء إلى مقاول يملك مؤسسة لها ترخيص وموقع وعمالة ومشاريع ، لكنه في هذه

الخطوة لم يكن يعتمد ــ وليس بمقدوره ــ على عمالة وطنية ، لارتفاع أجرها وقلة إقبالها على هذه الأعمال لوجود العروض الأفضل في الشركات والدوائر الحكومية وشركات القطاع الخاص ، فمن يعمل بأجر يومي 600 ريال لايتصور أن يقبل العمل بأجر 60 ريالا ، لذا من صار مقاولا صار يعتمد على عمالة وافدة ، دخلت هذا المجال تدريجيا ابتدأت بالعمالة اليمنية ثم المصرية والهندية وباقي الجنسيات ، في البداية عملت لوحدها ، لكنها التحقت برجال الاعمال برواتب شهرية لا تصل الى الف ريال شهريا ، فصار المواطن ـ ممن واصل العمل في هذا المجال ـ مالكا مشرفا مديرا ، وأما باقي الأعمال فيقوم بها العمال الأجانب ، فهو يأخذ المشروع بتفاصيله ، وعلى العمالة الأجنبية تنفيذ العمل تحت إشرافه ، ويكون هو الكاسب الأكبر ، ويتحمل المسؤولية الأكبر أيضا تجاه المنزل .

تبعا لهذه الظروف ، وفي تلك الفترة كان صندوق التنمية العقاري خير داعم لهذه التوجهات ، وبسبب الكثافة في الطلب على البناء ، وفق مقتضيات الطفرة العمرانية ، صار كل من يملك مقدارا من المال يستخرج سجلا تجاريا ويستقدم عمالة من الهند والباكستان ، وكلها عمالة رخيصة ، ويتم من خلالها بناء البيوت ، فالبعض كان ذا خبرة في هذا المجال كأن يكون مهندسا أو استاذا سابقا للبناء ، والبعض لم يكن لديه أدنى معرفة ، فاكتسبها بالتجربة ، وسارت الأمور بهذا النسق ، حيث يقوم المقاول مع عدد من العمال ببناء منزل أو منزلين ، وفق اتفاقية يتم توقيعها بين الطرفين ، وشهدت الساحة بروز العشرات من الأسماء من المقاولين ، تساقط بعضهم بعد فترة من الـــــــــــزمن ، خصوصا أولئك الصغار محدودي الخبرة والتجربة ، والذين لم يتقنوا بعض متطلبات لعبة المقاولات ، التي تضمن لهم الاستمرارية في سوق يخضع لتقلبات وتطورات الدورة الاقتصادية ، التي تنتعش فترة وتتراجع فترة أخرى ، ولا بد في فترات الانتعاش يبرز اشخاص ويسقط آخرون ، وكذلك في فترات الكساد والتراجع يوجد من يقف فيبقى ومن يتهاوى ويخرج ، ولكل واحد عوامل ومقومات واسباب البقاء أو الخروج .

وبالنسبة لي كنت قد امتلكت قطعة أرض اشتريتها بـ 2000 ريال ، وكنت قد اقترضت هذا المبلغ من بنك الرياض ، الذي لايمنح مثل هذا المبلغ الا بكفالة أحد عملائه ، فصادف أن أحد الذين قدمت له مساعدة بسيطة في المستشفى ، أن تعهد للبنك بكفالتي حضورا وغرامة ، في حال التأخر عن سداد هذا المبلغ الذي اتفق على أن يتم على دفعات (اقساط) بواقع 100 ريال شهريا ، فتم ذلك وصارت الأرض ملكا لي ، سعيت لبنائها بمختلف الوسائل ، وكان أسهلها الحصول على قرض صندوق التنمية العقاري ، ولذلك صرت أبحث عن وسيلة للبناء ، تجنبني الكثير من المزالق ، وتكون مناسبة لمستوى الدخل الذي املكه ، ففي تلك اللحظة ليس في جيبي أي مبلغ كاف لأن أبدأ فيه عملية البناء ، فما لدي هي قيمة الأرض التي حصلت عليها منحة من الحكومة وبعتها بـ 20 الف ريال ، فكانت أولى خطوات بناء المنزل أن تقدمت ـ أنا وخمسة من أصدقائي ـ إلى صندوق التنمية العقاري ، مثلنا مثل غيرنا للحصول على قروض بناء سكنية ، وكانت شروط الصندوق لمن يريد الحصول على القرض ، هو امتلاك قطعة أرض بموجب صك شرعي ، وأن تكون في مخطط قد تم تطويره وتجهيز بنيته التحتية للعمران والبناء ، وأن يوفر صاحب الأرض ترخيصا رسميا يسمح بالبناء من البلدية ، ويفترض أن يكون بحوزة المالك 25 % من قيمة البناء على الأقل ، لكي يحصل على الدفعة الأولى من البناء ، أي أن قرضا بقيمة 300 الف ريال يستدعي من المالك ان يكون بحوزته 100 الف ريال على الأقل كي ينجز الجزء الأول من المبنى ، ومن ثم يتم منحه القرض على دفعات متتابعة ، تتم وفق آلية متبعة من الصندوق ، وفي هذا الوضع لم يكن معي هذا المبلغ ولا نصفه ولا ربعه ، وباقي زملائي أيضا في حال متشابهة ،

وذات يوم جلسنا ، واستعرضنا الوضع ، وقلّبنا الأمر من كافة النواحي ، فكل اشتراطات الصندوق متوفرة لدينا ، عدا نسبة الـ 25% والتي تصل الى 100 ألف لدينا جميعا ، بالتالي لا يمكن لأي منّا أن يبدأ في البناء ، فضلا عن

الحصول على دفعات الصندوق فيما بعد ، فبعد فترة من النقاشات اتفقنا ـ نحن الستة ـ على خطة كانت تقضي التالي :

1ـ تقديم طلب القرض لصندوق التنمية العقاري ، للمنازل الستة ، بعد توفير كافة المتطلبات الأولية المعروفة .

2 ـ نجمع مبلغا معينا نتحمله نحن الستة ونبدأ ببناء واحد من المنازل ، ونوصله إلى الدفعة الثانية

3 ـ نأخذ من الدفعة الثانية من المنزل الأول لنؤهل المنزل الثاني ليأخذ دفعته الثانية .

4 ـ ومن الدفعة الثانية للمنزل الثاني نبني الخطوة الأولى من المنزل الثالث ،

5 ـ هكذا يمكن لنا أن نوفر الدفعة الأولى التي يتحمّلها المالك للبيوت الستة ، فتكون جميعها مسجلة في صندوق التنمية العقاري .

6 ـ الاتفاق على أن نقدم لنيل الدفعات الأخرى في وقت واحد ، كي نضمن استمرا رالعمل في البيوت الستة ، فتنتهي في وقت واحد .

كانت خطة محكمة كتبت على الورق ، تم تنفيذها بدقة ، وأنهينا بها متطلبات الحصول على قروض الستة بيوت ، ووفرنا النسبة الأولى لكل البيوت الستة ، واتفقنا أيضا على أن تكون العملية داخلية ، وأن ننفذ المشروعات الستة بجهودنا الذاتية ، بعيدا عن متطلبات المقاولين التي كانت صعبة علينا بحكم الزيادة في الطلب ، وتواضع امكانياتنا المادية نحن الستة ، فضلا عن أن دخول طرف سابع أو أكثر من طرف قد يعقد العملية ، لأننا كنّا في هذه العملية

حريصين على عدم الخسارة المادية ، وأن نحقق هدفنا بمستوى عال من الجودة ، واتفق الزملاء الخمسة على أكون مسؤولا ومشرفا على تنفيذ البيوت كلها .

أن أقوم بتنفيذ وبناء منزل بجهودي الذاتية ، فهذا يقتضي أن أكون على معرفة ــ ولو قليلة ــ بالهندسة والمقاولات ، وأن أعرف آلية العمل في هذا المجال ، الذي كان يشهد شيئا من الزيادة في الاشتراطات ، فالمنزل في السابق كان يتم بناؤه اتفاقا بين الأستاذ البنّاء والمالك ، ويتم رسم الخريطة على الأرض بدون ورق وبدون هندسة ، وبدون مواصفات ، وبدون إشراف ، وإنما يتم كل شيء على الحظ والتوفيق ، وما تسفر عنه عملية الاتفاق ، وكل بيوتنا القديمة بنيت بهذه الصيغة ، بعضها رائع الجمال والتصميم ، وبعضها ليس كذلك . .بينما في الوقت الحاضر نجد أن المنزل بحاجة الى مهندس وترخيص ومواصفات ومنفذ (مقاول) واشتراطات عدة ، وحتى احقق هذه المواصفات ، واتمكن من بناء المنازل الستة قرّرت أن أتعلم "كيف أكون مقاولا" ، ملمّا بكل خفايا خريطة المنزل على الورق ، ووسيلة تطبيقها على الأرض ، وأن أصل الى مستوى التصرف في الخريطة كما أتصرف مع وصفة المريض على الشباك ، وأول شيء تعلّمته بالمقاولات هو كيفية تخطيط الأرض على الطبيعة ، وكان معلمي الأول أحد الأخوة من الجنسية اليمنية ، ويدعى (قايد) فالطريقة تبدأ بإحاطة الأرض بحاجز خشبي على حدودها الأربعة ، وهو ما يعرف بـــ «الخنزيرة» وبعدها توضع المراكز لكل عامود بحيث يكون المركز في المنتصف قبله 10 سم وبعده 10 سم إن كان عرضه 20 سم ، هذه الطريقة العلمية هي التي تقول إن لكل مشروع خطه تسبق عملية التنفيذ ، وهي بمثابة وضع النقاط على الحروف . . بعدها تعلمت من (قايد) كيف استلم العامود ، وأضعه في مركزه الصحيح بوقوف سليم ، مع تحقيق السلامة في جسمه من التعرض للانفجار في حال صب الخرسانة المسلحة (الأسمنت والماء والكلنكر) ، وهذا يعتمد على الحدادة والنجارة وطبيعة خلطة الإسمنت المسلحة ، وكلها يتم تنفيذها من قبل عمالة متخصصة ، وتحت إشراف مباشر من مهندس متخصص ومقاول على معرفة تامة بالعمل .

وبعدها تابعت العمل لاكتساب المعرفة عن أسرار الهندسة المدنية ، وقررت أن أتعلم كل شيء عن البناء ، حتى إني ذهبت الى العاصمة المصرية (القاهرة) واشتريت مكتبه معمارية تتألف من 26 كتابا من المكتبة الانجلو/ أمريكية الواقعة على شارع ثروت باشا وسط القاهرة بمبلغ ألف جنيه مصري (5 ألاف ريال) ، ذلك في وقت كان الجنيه يعادل خمسة ريالات ، وبعد احضار المكتبة استأجرت مهندسا يعمل في البلدية ليقرأ الدرس عليّ في البيت ليلا ، على أن أقوم بالتطبيق على الطبيعة في اليوم التالي ، وبذلك ما أن انتهت من بناء الستة بيوت حتى وقد اصبحت مساعد مراقب مباني ، أستطيع استلام الخريطة والتصرف فيها كما أستلم وصفة المريض وأصرفها بكل ثقة ، وهكذا تعلمت المهنة ، وصرت أقوم بالعمل في أي مبنى من الأساسات حتى تسليم المبنى ، وأقوم بحسابها من الألف إلى الياء ، واستطيع تحديد كمية الحديد والخرسانة والطابوق والأسمنت والأبواب والنوافذ وكل ما يلزم من كلفة العمل والمواد في هذا المبنى ، بمعنى أني صرت محترفا في المقاولات ، مؤهلا للقيام بهذه العملية ، التي ينفذها مهندسون محترفون ومقاولون متمرسون وعمالة ذات تأهيل خاص في هذه الأنشطة .

حينها ــ وبعد تجربة بناء الستة منازل ، وتجربة الدراسة النظرية والعملية للمقاولات ــ قرّرت الاستقالة من العمل الحكومي ، لأتخلّى عن مهنة الصيدلة ، وأتفرغ بكامل طاقتي للعمل الجديد ، أي العمل الاستثماري في المقاولات ، بعد أن درست المهنة عمليا ونظريا في وقت واحد ، وأخذت تفاصيلها من متخصصين ، من مكتبة عامة ، ومهندس متخصص ، كان مشرفا علي في عملية التنفيذ ، وبقيت طوال عشر سنوات أكسب 250 الف ريال سنويا ، وعلى ضوء ذلك استخرجت سجلا تجاريا بإسمي ، وافتتحت مكتبا للمقاولات وسط سوق تاروت ، وبنيت سكنا للعمالة ، وقررت أن أطلع على انجازات عمالقة المعمار في الوطن العربي ، ومنهم المقاول المصري الشهير عثمان احمد عثمان وكتابه (هذه تجربتي) ، وكنت في المقابل أنفذ سنويا بما يعادل ستة مشاريع لا تقل مساحاتها عن 3000 متر ، وجمعت خلال عشر سنوات

أكثر من ثلاثة ملايين ريال ، لأني أعطيت المقاولات كل جهدي وإخلاصي واستفدت من كل الخبرات التي قرأتها أو سمعتها أو شاهدتها ، وكنت أتعامل ـ في بعض الاحيان ـ مع العمالة بالإنتاج بحيث يصل ما يستلمه عامل البلاط شهريا حوالي 4000 ريال ، والنجار 3000 ريال ، والعامل العادي 2000 ريال ، فمن يبدع ويحقق النجاح يحصل على حقه ، وأرجو أني لم أكن قد ظلمت أحدا في هذا الشأن .

إن العمل في المقاولات يتطلب المزيد من الدقة في التعامل مع الخرائط ، وهذه تتطلب مهارة ومعرفة ، كما تعتمد هذه المهنة على المصداقية مع الزبائن والعملاء الذين يريدون الإنجاز بالجودة المطلوبة والمواصفات المتفق عليها ، ولايقبلون أي خطأ أو تقصير غير متعمد ، وتتطلب المقاولات مستوى عاليا من الإدارة والخبرة في التعامل مع العمالة الذين يختلفون في المستويات والقدرات والكفاءات والطبائع ، ومعرفة تفصيلية في التعامل مع عدة جهات رسمية وغير رسمية ، وكلها بحاجة لأن ترضيها وتحقق متطلباتها . .

قضيت عشر سنوات من العمل في قطاع المقاولات ، شهدت تغيّر الأوضاع وتقلبها وانقلابها وانفلاتها أيضا ، فقد اجتاحت هذا السوق موجة كساد ، كان مظلمة ومرهقة ومتعبة وفارزة أيضا ، فالحركة الاقتصادية في البلاد تراجعت بسبب انخفاض اسعار النفط ، وتراجع سوق العقار حيث توقفت المخططات ، وتراجع تبعه العمران ، والسيولة باتت في اتجاه سلبي ، فمن يملك أرضا لا يملك السيولة لتطويرها وبنائها ، ومن يملك السيولة وحدها قد يحصل على أرض ولكن فرصة البناء تبدو ضئيلة لعدم السيولة ، والكثير من الناس اعتمد على قروض صندوق التنمية العقاري ، الذي تراجع نشاطه ، وما عاد يقدم القروض في وقت قياسي ، وصار طابور المنتظرين طويلا ، فبعضهم ظل ينتظر القرض 20 عاما ، وبعضهم انتقل الى ربه ولم يحصل على القرض العتيد ، وشهد الصندوق مماطلة كبيرة من بعض المقترضين ، الذين تهرّبوا كثيرا من سداد ما ترتب عليهم من التزامات ـ لسبب أو لآخر ـ فتحوّلت سياسة

الصندوق إلى الاقراض المعتمد على التحصيل ، فما يتم تحصيله من المقترضين يتم منحه لطالبي القروض ، وفي حال تراجع التحصيل تراجع الإقراض معه . . المحصلة النهائية من كل ذلك هو تراجع النشاط في قطاع مقاولات بناء المنازل ، ودخل السوق مرحلة الفرز التي أدّت إلى هجرة جماعية من قبل المقاولين ، فالبعض ـ مثلي ـ غادر بهدوء وبقرار منه ، والبعض الآخر غادر ساقطا في وحول القروض والمطالبات ، ومن بقيي من المقاولين باتوا أسارى لمنافسة حادة وغير شريفة في الأحيان ، لأن الصراع قائم على كعكة صغيرة جدا ، فلم يعد السوق يستقطب ويستوعب الكل ، فلا بد من خروج البعض .

لذا وعلى ضوء هذه التطورات قرّرت الانسحاب من المقاولات ، وهدفي أن أخرج منها بأقل الخسائر ، فاللعبة باتت لعبة إمكانيات ، ومنافسة تدور في ظل عرض متواضع ، يضاف إلى ذلك إني تعبت من العمل في هذا القطاع ، لأنك ـ أن عملت فيه ـ ستجد نفسك تتعامل مع ظروف متداخلة ومعقّدة ، فأنت تريد أن تربح بصورة لا تزعج العميل وتحقق رضاه ، وفق الاشتراطات المحددة في العقد المبرم ، وقد يحدث العكس فلا تربح ولا ترضي العميل ، فانسحبت من القطاع حاملا أسفي الكبير ، إذ بات مجالا يعيث فيه "من هب ودب" ، فصار المقاولون ـ بعد خروج النخبة ـ فئات من العمالة الوافدة التي تعمل لنفسها ، فتأخذ المنزل والمنزلين ، وتبني بيوتا بصورة بها الكثير من الغش والتلاعب ، والتي تنطلي على الطرف المستفيد .

إنني ـ بحق وبعد عشر سنوات من العمل ــ مللت من المقاولات ، وما حوته من مشاكل وأزمات ، وتداخلات ، خصوصا أن كافة الأنشطة في هذا القطاع انتقلت شيئا فشيئا الى العمالة الوافدة ، وهي عمالة تحوي الجيد والرديء ، وهي ـ على كل الأحوال ـ لا تبحث الا عن تحقيق أعلى معدلات الربح ، فصار بعض العمال الاجانب مقاولين تحت مظلة تستر من قبل المواطنين السعوديين ، وتلك من مظاهر مسلسل التراجع الذي بدأ بدخول

العنصر الأجنبي ، فبعد ان كانت المنازل تبنى بأيد محلية بنسبة 100% فالبناء والدهان والنجار والحداد كان محليا ، صارت كل هذه الأعمال تنفذ بأيد وافدة ، وتقلّص دور المواطن ليكون مالك مؤسسة مقاولات ، يعتمد على العمالة في كل شيء ، وفي تطور أكثر خطورة صار السعودي "غطاء" قانونيا للعمالة الأجنبية فقط ، فالمقاول والمهندس والعامل ، والسباك و . . . و . . .كلهم أجانب ، لتصبح المقاولات خدمة مصنوعة في بلاد الهند والباكستان واليمن ومصر ، وليس للسعودي سوى الاستفادة من هذه الخدمة فقط وفقط ، بلا دور في التخطيط والتنفيذ ، وإذا كان المقاول في وقت ما يمنح العامل الأجنبي راتبه الشهري ، بات المقاول في الوقت الحاضر ينتظر العامل كي يعطيه ما ترتب عليه مقابل التستر عليه قانونيا ، فقررت مغادرة النشاط الى غير رجعة ، مسجّلا حلقة أخرى من حلقات الصنايع المختلفة التي دخلتها ، بعد مشوار الزراعة والرعي ، والميناء ، والعمل الحكومي في الصيدلة ، والمخاض العسير الذي خضته خلال الدراسة ومعاناة وفاة الوالد . . فالسوق لم يعد مكان ملائما لي فخرجت بأقل الخسائر ، لم أخسر ماديا ، ولكن هناك من ينظر للموقف من بعيد يظن بأن كل مقال هو مشروع سارق .

ولعلي في هذا الشأن اتذكر مقولة أحدهم لي بأنك مقاول والمقاولون في العادة كاذبون ، فقلت له :

ـ هل عملت في المقاولات؟

فكان رده بالنفي :

ـ لا ، ولكن لا دخان من غير نار

ـ هل سبق وأن جلست مع أحد المقاولين ممن تعثروا وقرأت تجربته؟

ـ لا ، وما صار لي الشرف ، ولا يبدو أني اتشرف بالجلوس مع شخص يعيش على حقوق الغير ، ويمارس السرقة والغش والتدليس .

ـ هون عليك أخي ، واسمعني قليلا ، المقاول يسير وفق اتفاقية ، ووفق خارطة بناء مرّخصة ، عليه أن ينفذها على الأرض ، في الوقت والمواصفات المطلوبة ، فقد يحدث تعثر منه ، وقد يحدث خطأ في التنفيذ ، وهذا على المالك أن يقوم بالإشراف على المقاول من قبل مكتب هندسي ، تضمن السلامة في المنزل بعد التنفيذ ، وإذا صارت مخالفات يمكن اللجوء إلى الجهات المعنية ، لكن قل لي بربك إذا لم يلتزم الزبون بما يترتب عليه من حقوق فماذا يعمل المقاول؟ .

ـ وماذا عليه ولم يلتزم به؟

ـ معظم المقاولين الذين تعثروا وخرجوا من النشاط ، تم بسبب عدم التزام الملاك بما يترتب عليهم من حقوق مادية ، فالمقاول عليه متطلبات واشتراطات ومصاريف ورواتب ورسوم زكاة ورسوم تأشيرات وإقامات ، يوفرها من الاقساط التي يحصل عليها من الملاك ، وإذا لم يلتزموا فيضطر يدفع من رصيده ومن أمواله الخاصة ، فيدخل في متاهات عديدة ، بعكس لو التزم الملاّك بما يترتب عليهم تكون المشكلة قد حلّت .

ـ ولكن هناك جشعا كبيرا من قبل بعض المقاولين

ـ هذا صحيح ، البعض يقدم عطاءاته بسعر مرتفع ، وذلك كي يضمن سلامته وسلامة عمله ، وفي المقابل يضمن لك السلامة والجودة ، وذلك افضل من التوجه الى فئات أخرى من العمالة فتدخل معهم في حيص بيص ، فلا جودة ولا سعر . .

ـ هل تشهد تأخرا من قبل الزبائن في سداد ما ترتب عليهم

ـ للأسف نعم ، وبعضهم يحملون سمعة كبيرة في المجتمع ، وبعضهم تقتضي ظروفهم التأخير ، ولكن التأخير من هذا وهذا وذاك وتلك ، ضاعت فلوسك يا سعيد!! وللمعلومية فهذه المعاناة يواجهها كل العاملين في المقاولات ، من مقاولي البناء ، ومصانع الزجاج والألمنيوم ، وتجار الدهانات والديكور . .

إن السنوات العشر جعلتني اخوض في حوارات من هذا القبيل كثيرة ومؤلمة تكاد لا تتوقف ولا تنتهي ، لكنها توقفت بعض الشيء حينما تركت المقاولات ومشاكلها وكل اجوائها ، لأدخل عالما آخر ، وصنعة جديدة

وذات مرة ، وفي جلسة أخوية في احدى الاستراحات التي كنت قد بنيتها ، وكان من بين الحضور صحفي سليط اللسان ، فسألني ـ وبدون مناسبة ـ عن السبب الذي دفعني للخروج من المقاولات ، وفهمت أنه كان يغمز من طرف خفي بكوني انسحبت بسبب فشل أصابني ، وأراد أن يحيل الجو الى شيء من السخرية ، فأحلت المجال إلى شيء جدّي فقلت له :

ـ أخي العزيز ، ما الغرض من سؤالك

فأجاب علي ، بعد أن عرف أني جاد في الإجابة عليه :

ـ إني ارغب في الاستفادة ، ولاغرض لي شيء آخر

ـ أليس لديك غرض النشر الصحفي؟

ـ لا أبدا

ـ إذن عليك أن تصغي لي اخي العزيز لأقول لك ، بأنّ السنوات العشرة التي عشتها في عالم المقاولات ، وجدتني اتعامل مع عينّات من البشر ، فقد شهدت بعض ملاك المنازل يريد أن يبني منزلا فوق طاقته المالية ، ويرغب في الأناقة والرقي و"الفشخرة" على حساب المقاول ، في كل يوم له رأي وإجراء تغيير معين ، وكلها يريدها بالمجان ، ولا يوجد شيء يأتي مجانا ، خصوصا في هذا العالم .

فالتفت لي ، مقاطعا :

ـ هل تعتقد أن المشكلة فقط وفقط لدى الملاّك ، فماذا تقول بالمقاولين الذين يتهربّون عن اداء مهامهم ، أو يؤدونها بجودة متواضعة؟

ـ نعم كلامك صحيح ، أنا شهدت عددا من المقاولين وضعوا أنفسهم في أتون النار مع الناس ، فكانوا يأخذون مشاريع فوق طاقتهم العملية ، فوجدت بعضهم يترك مشاريعه العملية ويسافر المغرب ومصر وتايلند ، وما أن يأتي حتى يجد جملة من القضايا مرفوعة عليه ، وبهذا السبب خرج العديد منهم من السوق .

هنا لم يشأ أن يكمل فقال لي :

ـ انت لماذا تركت هذا العمل؟

ـ تركته لأنني مللت منه ، وخليته لمن يستطيع التعامل معه بشكل أفضل ، تركته لأخرج بأقل الخسائر .

- 6 -

تركت العمل في المقاولات ، وغادرت ذلك الوسط الذي مللت من هوائه ومن روائح الاسمنت والرمل والحديد والخشب والدهانات والديكورات ، وكرهت الورق الأزرق التي تطبع عليه الخرائط ، وانتابتني حالة رفض من المكاتب الهندسية ، ومكاتب البلدية ، ولم يعد بمقدوري التعامل مع العمالة والمهندسين والملاك . . بعد ذلك أوقفت كل نشاطاتي ، وأجريت تصفية لكل ممتلكاتي ، وبعت المعدات التي معي ، وسرّحت كل عمالتي ، وفي لحظة تهوّر كدت أن أرمي تلك المكدسة في مكتبتي والتي اشتريتها من جمهورية مصر العربية .

تركت المقاولات وأهلها ، وأنا آسف على الوضع التى آلت إليه ، لأدخل بعد ذلك في مرحلة الحيرة والذهول ، والتعب النفسي ، وصرت لفترة ليست طويلة اعيش على ما كسبته ، أو مما تبقى من عائدات العمل في المقاولات ، وكان الارهاق يأتيني نهارا ، وأنا أرى البيوت ترتفع ، وبعضها تسير بخطى سليمة ، وبعضها بخطى خاطئة وتنطوي على غش وتلاعب في العمل ، واجدني عاجزا عن إصلاح هذا الوضع . . وكان ينتابني الأسى ليلا أيضا وأنا اسمع قصص بعض المقاولين الذين انكسروا ، ودخلوا السجن بسبب ذلك ، أو بعضهم دخل في قضايا شكاوى مع بعض العملاء ، فذلك يزعجني ، رغم أنهم كانوا منافسين لي ، وفي وقت ما انتابني شعور مزدوج ، شعرت بالأسى على هؤلاء الناس ، وبالفرح كوني خرجت بأقل الخسائر وأقل الأضرار ، يكفي أنني لم أدخل أي محاكمة مع أحد ، رغم مطالباتي العديدة للعديد من الناس ، فلم اشتك على أحد ، ولم يشتك أحد علي ، خرجت نقي الجيب طاهر القلب اليد .

في غمرة حيرتي وتعبي وبحثي عن نشاط آخر غير المقاولات ، أحقق فيه ذاتي ، وأكسب فيه قوت عيشي أنا وعائلتي ، التقيت بواحد من أصدقائي كان

قد مرّ بجملة تجارب مشابهة لي ، وقد لاحظ علي كثرة الذهول ، وشدة الألم ، وطول غياب عن الأجواء العامة ، فكان قد بادرني بالسؤال عن أحوالي ، مبديا قلقه على الوضع الذي أنا فيه ، فما كان منّي إلا أن شرحت له ، وذكرت له ما عانيته من المقاولات ، وما أحدثت لي من تعب نفسي رغم الأرباح الكثيرة التي كنت أجنيها ، يكفي أن مليون ريال لي لا استطيع أن احصل عليها من عند الناس ، فهي لدى عدد قليل من الزبائن ، البعض يسدد قليلا ، والبعض أعطى الأذن الطرشاء ، والبعض يعترف لكنه لا يستطيع ، والبعض الآخر ينكر أن حقا عليه قد ترتب لي ، رغم الأدلة والبراهين .

فقال لي :

ـ ما دمت كذلك ، فأنت خرجت سليما فماذا يزعجك؟

فقلت له :

ـ يزعجني جملة من الأمور ، أبرزها أنني أعيش عاطلا ، وهو أمر لم أتعود عليه منذ نعومة اظفاري ، يؤلمني أنني بعد هذا العمر من الكفاح والعمل والنشاط أعيش عالة على مكتسبات حققتها قبل سنوات ، وكان يفترض أن تكون رصيدا إضافيا .

ـ المسألة سهلة ، وسهلة جدا ، وكما قالوا :"هونها وتهون" .

ـ وكيف يا حكيم زمانك؟!

ـ عليك بقطاع اقتصادي آخر ، فأنت بت تملك خبرة جيدة من خلال المقاولات ، وصرت تملك القدرة على التعامل مع الزبائن والعملاء ومختلف

الأصناف من البشر ، وكلنا يعرف أن القطاعات الاقتصادية تتشابه في بعض أعمالها ، فلماذا لا تبحث عن قطاع آخر .

ـ وأي القطاعات المتاحة في الوقت الحاضر ، وأنت تلاحظ الوضع ، وترى بعينك الرؤوس الكبيرة التي سقطت .

ـ اقترح عليك التوجه نحو القطاع الرزاعي بنمطه الحديث ، فعائداته لا تقل عن عائدات المقاولات ، والطلب عليه متزايد ، فهل أحد لا يأكل الخضروات والفواكه ، فالطعام قوام الحياة ، والناس متوجهون نحو الفواكه والخضروات ويرون فيها صحتهم ومعيشتهم ، والله يجازي الأطباء كل خير فهم كل يوم يقدمون النصائح والأدلة والبراهين على أن الغذاء الصحي الذي يحتوى على الفواكه والخضروات .

هنا اعتملت الفكرة في ذهني ، خاصة وان صديقي كان مزارعا متمرسا ، وإنني مزارع من الأصل ، ولست طارئا على الزراعة ، لكني ـ مع ذلك ـ مزارع نخيل ، لا مزارع منتجات أخرى ، فخبرتي مع النخلة قديمة وكبيرة ، ولكني متواضع للغاية في معرفة الطرق الجديدة والحديثة في الزراعة من قبيل البيوت المحمية ، وأعمال التهجين والتطعيم ، وطرق الإكثار المتعارف عليها في بلدان الصين والهند ومصر ، ففضّلت الفكرة ، وتحفّزت للإقبال على هذا النوع من النشاط الاقتصادي ، خاصة وأن هناك دعما حكوميا مباشرا للنشاط الزراعي ، من خلال منح الأراضي الزراعية ، المدعومة بالقروض الزراعية ، وخطابات التأييد لاستقدام العمالة في المجال الزراعي ، فضلا عن خدمات الإرشاد والتوجيه وعلاج الآفات الزراعية ، وكلها تقدم مجانا من خلال فروع وزارة الزراعة ، فدخلت الفكرة في رأسي ، وقررت الدخول في هذا المجال ، حيث إني أملك أرضا زراعية في منطقة الجعيمة على طريق الجبيل ، وحصلت على قرض من البنك الزراعي بـ 300 الف ريال ، وقمت بردم الأرض الذي كلفنى مبلغا ليس قليلا ، وأخذت ترخيصا بحفر بئر ماء فيها ، وكانت المياه صالحة للزراعة ،

واستعنت ببعض أصدقاء الوالد من الفلاّحين الأوائل فتعلّمت كيف أسوي الأرض من أجل الزراعة ثم كيف أضع البذور أو الشتلات داخل الأرض الزراعية ، فتعلّمت كيف أربي النبات وكيف أزيل الثمار الزائدة ، وكيف أنفذ برنامجا وقائيا للمزروعات مثل رش النباتات بالمبيدات ، و كنت استأجر مهندسين زراعيين أدفع للواحد منهم 300 ريال الى 500 ريال في الزيارة الواحدة بحيث يعلّمني المهنة في الموقع خصوصا في البيوت المحمية ، فأحلت ذلك الحقل إلى مدرسة في العلوم الزراعية ، مدرسة في الحقل ليس على المقاعد في الغرف المغلقة .

وأثناء نشاطي وصرف جهدي على نشاطي الجديد ، وقع في يدي كتاب يحمل عنوان «الاصول الزراعية في بناء البيوت المحمية» ، وهو كتاب يتألف من 300 صفحة ، وكان صاحب الكتاب رئيس قسم الخضار في جامعة المنصورة د . طه الجزار ، وصادف أن التقيت مهندسا مصريا يعمل لدى شركة زراعية بالاحساء فطلبت منه أن نعقد حلقة علمية كل يوم أربعاء ، فتعلمت منه الكثير من المعلومات الأساسية في الزراعة ، وحضرت دورة حول استخدام المبيدات ، وكذلك ندوة عالمية عن النخيل ، وكونت لي مكتبة زراعية متكاملة عن البيوت المحمية والمكشوفة ، على غرار مكتبة المقاولات السابقة ، وكانت شركة ارامكو السعودية تسمح لنا بالاستفادة من خبراتها ، فصرت ممارسا للزراعة كممارستي للمقاولات ، وكنت أحضر ندوات في كل مكان ، في الرياض وجدة ودبي ، واستمر الحال بي لأكثر من سبع سنوات كانت كلها عطاء ، حتى إنني اذهب كل يوم إلى منطقة الجعيمة على طريق الجبيل ، وصار لدي استعداد لحضور أي ندوة ، وتجريب أي بذرة ، لقد صرت " زراعيا" من الطراز الأول ، وجرت الزراعة في دمي ، أعادتني لأيامي الأولى ، يوم عشقت النخيل ، وتحاورت معها ، وتجاذبت معها اطراف الحديث ، والآن أنا أزرع النخلة بجوار البيت المحمي ، وأزرع الخضروات المحلية كالطماطم والخيار والبطاطس والبصل والحشائش الخضراء ، والشمام ، وحققت إنجازات على هذا الصعيد ، وابتسمت لي السوق لبضع سنين ، ووجدت نفسي في هذا القطاع الجميل ،

لأنعم بالهدوء الزراعي ، واستنشق الهواء العليل الذي تعوّدت على استنشاقه يوم كنت طفلا ، فالأرض الزراعية ـ لدى اخواني المصريين ـ هي عرض وشرف الإنسان ، وكنت اتعامل معها بهذا المنطق ، خاصة وأن لدي عددا من العمالة المصريين الصعايدة الذين يرون في الزراعة حياتهم وفي الخضرة شعورهم وفي الترع والسواقي ضميرهم الحي . .

إن الزراعة نشاط آخر ، تختلف روائحه عن روائحه وزبائنه عن روائح وزبائن المقاولات ، فهو يتعامل مع غذاء الإنسان وصحته ، تلك تعتني بمسكنه ، لكنهما معا من القطاعات الاقتصادية التي تعبث بهما "سلطة" العرض والطلب ، ومعادلة الجودة والسعر ، وتهيمن عليها "صداعات" وتقلبات الدورات الاقتصادية ، ومتواليات الطفرة والكساد ، وكما جرى للمقاولات جرى للزراعة أيضا ، فوجدت الزراعة باتت اشبه بـ "محرقة" تأكل ولا تعطي ، وعاثت في سوقها "سوسة" المنافسة الشرسة ، وغير الشريفة ، وصارت الأسعار في بعض الأوقات "منحطة" لدرجة أن المزارع بات يفضل أن يرمي بضاعته من الطماطم في البر أو البحر او في سلال القمامة على أن يبيعها ، حيث أن قيمة الصندوق الورقي (الكرتون) يتم توفيره بثلاثة ريالات ، في حين يباع هو والبضاعة التي يحتويها بـ "ثلاثة ريالات" ، أو أقل في بعض الأحيان ، فبيعه فارغا بات أفضل للمزارع ، ومن ذاك الذي سوف يشتري الصندوق فارغا .

وذات يوم وقفت على أرضي الزراعية ، وطلبت منها أن توفر لي اربعة آلاف ريال شهريا فقط ، وأنا سوف أمنحها جهدي ومالي ووقتي ، لكنها لم تستجب لطلبي فصرت ادفع أربعة الاف ريال فوق ما اتكلفه من مصاريف ، ودونما عائد . فالسوق بات "يعج" بكافة أنواع المنتجات المحلية والمستوردة ، حتى صارت صناديق الطماطم من شتى أنحاء العالم تدخل على السوق ، فتبدأ المساومات ، والمزايدات فما أن ينتهي دلاّلو سوق الخضار من بيع الصناديق الجاهزة من المنتج المستورد حتى يأتي دور المنتج المحلي ، فيكون الزبائن قد اكتفوا من منتجهم ، ولم يبق للمنتج المحلي سوى المزايدة بأرخص الأثمان ، إذ

أن الدلال يزايد على صناديق الطماطم والخيار والحشائش الخضراء بـــــــــــريال وريالين ، وكلها تعني خسائر فادحة على المزارع الوطني ، الذي لم يعد انتاجه يكفي لسداد ما ترتب عليه من ديون لصندوق التنمية الزراعية ، فضلا عن قيمة البذور ، وكلفة العمالة ، وكلفة النقل ، والكهرباء ، والنتيجة هي تراجع العائد ، الذي يزداد تراجعا كلما زادت وفرة الانتاج وارتفع مستوى العرض ، وتراجع في المقابل الطلب الذي يبقى محدودا أمام خيارات متعددة تعرض منتجها ، فالسوق يحوي المنتجات الأجنبية المستوردة ، والمنتجات المحلية من خارج المنطقة ، لذلك ظلت الأسعار تهوي وتهوي حتى تصل إلى وضع يحق لنا ان نطلق عليه "الكارثة" . . إن الموسمية في القطاع الزراعي ينعم فيه الفلاحون في الهند والباكستان ومصر ، بينما هي عندنا بلاء مبرم ، وأخبار غير سعيدة ، وسوق غير قادرة على استيعاب الكم الهائل من المنتجات المحليـــــــــــة والمستوردة .

تم اصدار قرار "الروزنامة" الزراعية ، والقاضي بوقف الاستيراد خلال فترة الذروة ، والتعامل مع الدول المصدرة للمنتجات الزراعية بالمثل ، اذ لا تسمح الكثير من الدول مثل الأردن وسوريا وغيرهما باستقبال المنتج الزراعي السعودي في فترات ذروته عندهم ، بينما سوقنا مفتوحة لهم في كل الأوقات ، فصار قرار الروزنامة الزراعية مثله مثل غيره ، مكانه الأرفف والمكاتب ، وإذا تخطّى هذا الإطار فهو قرار يتم الحديث عنه كـ "مقترح" يتم تداوله لحل أزمة التسويق في القطاع الزراعي ، لم يأخذ نصيبه من التفعيل .

وظهرت فكرة "شركة التسويق الزراعي" التي تتكفل بشراء منتـــــــــــج المزراعين المحليين وتسويقه في المملكة وخارج المملكة ، واقترحوا لها رأسمال بـ 600 مليون ريال ، لكنها كانت اقتراحا ، لم تجد من يتجاوب معه ، ولم تظهر الشركة الى النور ، وبقي الانتاج الزراعي المحلي في مواسمه لا يجد مكانا لتصريفه ، فأسواق المملكة كلها باتت متشبعة من المنتج ، وكل سوق يضغط على السوق الآخر ، لتتراجع الأسعار ، ولو حدث لأي مزارع آفة زراعية ولو

بسيطة ، تكون نتائجها وخيمة عليه ، لأن عائده لا يحميه لدفع تلك الخسائر ، فضلا عن أن الخسائر سوف تحرق ما حققه من عائدات ، فيخرج "صفر" اليدين ، إذا لم يكن قد أضاف من أمواله الخاصة لإنقاذ ما تبقى من محصوله ، ومزارعه وحقوله وبيوته المحمية . .

وظهرت ايضا فكرة "التصنيع الزراعي" أي أن المصانع تأخذ ذلك الفائض من المنتج ، سواء من التمور أو الطماطم ، او البطاطس ، ومن ثم القيام بتحويله الى منتجات غذائية اخرى ، من خلال التخليل ، او التجفيف ، اوالتغليف ، أو الخلط مع منتجات أخرى وتحويلها إلى منتج غذائي آخر للإنسان أو للحيوان . . لكن كل تلك الأفكار لم تأخذ وضعها على الأرض ، ولم تتم الاستفادة من وفرة الانتاج المحلي في بعض الأوقات ، بدليل ان كل الصناعات الغذائية ، كالعصائر والمخللات وغير ذلك تعتمد على المنتج الأجنبي ، وفي كثير من الأحيان تجد المنتج الوطني لا يعدو أن يكون منتجا خارجيا تمت تعبئته في بلادنا ، وهذا ينطبق على كل العصائر والزيوت النباتية التي نراها ولها أسماء عربية ومحلية .

فكانت النتيجة أن ابتعدت وانسحبت بهدوء عن القطاع الزراعي ، مثلي مثل العشرات من المستثمرين في القطاع ، الذي تغلب عليه الموسمية ، فهو قطاع ينتعش في وقت من أوقات السنة ، ويتراجع في وقت آخر ، الناجح في هذا القطاع هو من يستطيع أن يتفاعل مع الدورة الزراعية هذه ، لكني لم أستطع لأن كل منتجات الدورة تعرّضت الى ظروف متشابهة ، فلو تركت الطماطم الى الشمام ، أو الشمام الى البطاطس فسوف أجد نفسي أسيرا لتلك المعادلة الصعبة ، مدخلات (بذور ، عمالة ، مياه ، تجهيز) باهضة الثمن ، ومخرجات (ثمار) منخفضة السعر ، لذلك لم اجد قرارا اصلح من الابتعاد عن هذا النشاط الذي بات ـ مثل غيره ـ أسيرا للعبة "الامكانيات" ، وذلك حفاظا على ما تبقى لدي من أموال ربما افادتني في حياتي الأخرى ، اذ لا يتصور ان أرمي أموالي في محرقة إسمها الزراعة ، التي اخذت مني مليون ريال . . وكنت على

استعداد تام لأن اعطيها كل ما أملك ، لكنها لم تبادلني محبة بمحبة كما فعلت النخلة في الأزمنة الأولى لحياتي العملية . . تلك قصتي وحكايتي مع صنعة الزراعة بالطرق الحديثة ، خرجت منها ولا أدري لمن أوجه عتبي ولومي ، وأنا أرى منجزا وطنيا ، يتهاوى بهذه الصورة ، فتركت العمل في الزراعة ، وهي حلقة هامة من حياتي العملية .

الزراعة هي الحياة ، هي الغذاء ، هي الظلال ، هي الجمال ، هي كل شيء ، لكنها الأكثر عرضة للدمار ، فحينما تأتي الرياح الشديدة فإن أول من يقاومها هي الأشجار ، وأول من يتأثر بها الأشجار أيضا . . إذ نشبت الحرائق فإنها تشتعل في الغابات أكثر من غيرها ، وتأكل أخشابها وتفتك بها قبل أن تنال من المباني . . لقد تركت الزراعة وأشعر اني تركت جزءا من حياتي .

- 7 -

بعد أن تركت العمل في المقاولات ، والعمل في الزراعة ، وكلاهما اخذتهما عن طريقهما السليم والصحيح (العلم والتعلم) ، وجدت نفسي تائها بين الأمواج ، وضائعا في غابة ، الناس فيها ذئاب ومن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب ، فقلت ادخل النطاق التجاري أجلب سلعا من تجارة الجملة أوالمورّدين وابيعها في سوق التجزئة ، ولم يكن امامي في البداية سوى العمل بمواد البناء ، بحكم كوني مقاولا ، فهذا النوع من التجارة ينسجم مع تخصص من تخصصاتي ، وهو"المقاولات" فذهبت وراء هذا النشاط ، وصرت اتعامل مع كبار التجار والمورّدين ، وأجلب منهم الأسمنت والبلاط والأدوات الكهربائية والمواد الصحية وملحقاتها ، لكني بعد فترة من الزمن "فشلت" في هذا النشاط ، رغم أنه جزء من نشاطي ، وعملت فيه عشر سنوات .

أولى اسباب فشلي ان "طفرة" بناء البيوت لم ترحم أحدا ، وصار الكل يتعامل معها بطريقة ما ، وإذا بي أجد نفسي صاحب محل ضمن العشرات من المحلات المتشابهة ، وكلهم يتنافسون على زبون واحد ، هذا الزبون الذي لن يشتري بضاعته من أرباب متفرّقين ، بل يفضل أن يشتريها كلها من واحد ، فتكون النتيجة أن كل محل عليه أن يظفر بزبون واحد ، فسوف يأتيه الخير ، فعلى شارع واحد لا يتعدى طوله 200 متر قد تجد عشرة أوعشرين محلا تعمل بنشاط واحد ، وبتخصص واحد ، وتبيع المنتجات نفسها ، والفوارق في الأسعار مسألة قائمة ، فالبعض يحدث فوارق في أسعاره بالجملة ، والبعض الآخر يحدث الفوارق في سعر كل سلعة ، ولأن الفوارق طفيفة ، لذا فإن معرفة الفوارق بين محل وآخر تكاد تكون مبهمة ، ويصعب الوصول لها ، فيلجأ المستهلكون إلى التقييم الاخلاقي ، فيرى الواحد منهم أن فلانا أفضل لأن نشتري منه لكونه أكثر ابتسامة وأكثر صدقا ، فصار التواجد في السوق مسألة بحاجة الى المزيد من الجهد ، خصوصا وقد دخلت الى السوق بضائع من شتى

بقاع العالم ، وبعضها ذات جودة متواضعة ، والتي تباع بأسعار اقل نسبيا بالمقارنة مع أسعار السلع ذات الجودة الأعلى .

وثاني اسباب فشلي في النشاط التجاري أن العديد من المستهلكين يأخذون سلعا ولكن لا يسددّون ما يترتب عليهم ، فمن هذا ألف ، ومن ذاك مئة ، ومن ثالث عشرة ريالات ، وجدتني مديونا بمبالغ طائلة ، وأطالب الزبائن المتعثرين بمثلها ، ولو تم إعطائي حقي من الناس لأعطيت الناس حقهم ، ولا أنا أريد أن آكل حق أحد ، ولا أظن أن أحدا يريد أن يكون مديونا لشخص مثلي ، ولكن المعادلة جرت بهذه الصيغة ، إنني أجلب بضاعة بسعر مؤجل بموجب فواتير رسمية تثبت حق أصحابها ، وأقوم ببيعها في سوق التجزئة ، البعض يشتري ويدفع ما يترتب عليه ، وإذا تأخر فإن تأخره لا يزيد عن ايّام أو أسابيع قليلة ، بينما البعض الآخر يعرفك عند الحاجة ، وينساك عند السداد ، ومن هذه العينة من الناس هناك من أصيب بداء لا دواء له يتمثل في أن ثمة قلقا في داخله وفي أعماق نفسه ، لا ينفّس هذا القلق إلا عن طريق السرقة ، بل أن بعضهم ليشعر بشيء من الفخر إذا ما نجح في تحقيق عملية نصب واحتيال على الآخرين ، وتنتابه حالة من اللذة اذا ما استطاع أن ينصب على غيره ، وصرت أنا احد ضحايا الاحتيال الناجم عن مركبات النقص المتفشية عند الكثير من بني البشر . فتراكمت الديون والمديونيات ولاحل .

لقد كانت التجارة ناجحة يوم كنت مقاولا ، أبني البيوت والعمارات ، فكل مواد البناء لدى يتم تسويقها على الزبائن ، وكانت العملية منسجمة مع بعضها ، ولكن حينما توقفت عن المقاولات ولجأت الى الزراعة لم يكن هناك مجال للبدء من الصفر لفتح محلات لبيع بعض منتجات أو معدات الزراعة ، لذلك بقيت بضع سنوات عجاف أعالج فيها سكرات الموت التجاري ، الذي جاء مع الموت الفعلي في المقاولات ، ولتجاوز تلك الأزمات اضطرت لأن ابيع بعض محلاتي التجارية ، وأصف نفسي بكل جرأة بـ "التاجر الفاشل" ، إذ لم أحقق من هذه التجارة غير أني دخلت في "محرقة" أخذت ما تبقى لدى من

أموال لأخرج من التجارة بـ "خيبة" و"خسارة" ، واقتنعت متأخرا بان التجارة "شطارة تحتاج الى الف مهارة ، قد تمنح وقد تنتهي بمرارة" ، فأعلنت عن وقف النزيف ، ورفعت الراية البيضاء ، وقمت بتسديد ما ترتب علي من ديون تراكمت بفعل الزمن ، وانسحبت من السوق اجرّ خيبتي وقد صرت ممن ركبه الإفلاس واستقر بكل زواياه .

وفي لحظات التقييم ، والبحث عن العوامل والأسباب وقفت على حقيقة تتمثل في أن مشكلتي أو ازمتي هي حال العشرات من أصحاب المنشآت الصغيرة والمتوسطة ، التي لا تستطيع العيش في بحر متلاطم من الأمواج ، فالكبير يأكل الصغير وبلا رحمة ، والصغير في بعض الأحيان ليس أمامه من خيارات سوى أن يذوب في الكبير أو ينسحب بهدوء ، هذا إذا لم يستقبله السجن مطلوبا بأموال وديون ركبته وصار رهينة لها . . وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد ، فهناك من لا يكف عن الحديث عن فسق التجار وقيامهم بمهنة النهب وأكل السحت ، وأكل أموال الفقراء والمساكين . . مسكين حقا ذلـــــــــك التاجر الذي يطلب منه الناس أن يعطي ويتبرع وينفق على وجوه الخير في وقت زهوه وارتفاع شأنه ، وإذا ما سقط وتهاوى لا أحد يرحمه أو يشفق عليه ، ولا أحد يضع إسمه في الجمعية الخيرية ، والمفارقة الأليمة التي عشتها بهذه التفاصيل هي أن الناس كانت تحترمني يوم أكون غنيا ومترفا ، وعندما تتراجع العملية أكون حينها إنسانا غير محترم ، بل أن كل صفات الانتهازية والوصولية تلتصق بي . . فإذا صرت ناجحا لم أنج من عيون بعضهم واتهاماتهم لي بالنهب والسلب والبخل ، وإن صرت فاشلا لم أنج منهم أيضا فيتم اتهامي بسوء الإدارة ، إذا لم يقل أحدهم بأن ذلك جزاء من الله على الظلم والجور!

لذلك هربت من هذا العالم ، بأقل الخسائر .

ماذا أعمل؟

وما الذي يترتب عليّ فعله بعد هذه المغامرة التي فشلت أو انتهت مدتها؟

هنا قمت بالعودة الى العمل والنشاط الحكومي مرة أخرى ، فبعد أن كنت تاجرا عدت مرة اخرى موظفا ، فصادف أن صدر قرار من مجلس الوزراء يسمح بتبادل المنافع بين القطاعين العام والخاص ، فمن كان مسجلا في التأمينات الاجتماعية (لكونه موظفا في القطاع الخاص) يمكنهم العمل في الحكومة ويتم تسجيله ولا تضيع عليه سنوات الخدمة في القطاع الخاص ، وبصفتي كنت موظفا في الحكومة ، وانتقلت الى القطاع الخاص وسجلت اشتراكا في التأمينات الاجتماعية ، تقدمت للعمل مرة أخرى في الحكومة وعلى مهنة فنّي صيدلة ، واستجبت لطلب الحكومة بأن أعمل لعام كامل مجانا بموجب قرار يقضي بذلك لمن تخلّوا عن الأعمال الفنية وأرادوا العودة لها مرة أخرى ، فعدت إلى العمل الحكومي الرسمي مرة أخرى وقررت التخلص من الأعمال التجارية بمختلف أشكالها ، لكوني عدت وأصبحت موظفا في الحكومة ، ولا بد للموظف الحكومي أن يكون بعيدا عن الأعمال التجارية ، فما كان منّي الا أن جمّدت كافة الأنشطة وبقيت موظفا حكوميا لمدة عامين ، حتى بلغت سن التقاعد ، وأنهيت مرحلة هامة من حياتي لأعود مرة الى النشاط التجاري ، ولكن بصيغة أخرى ، وسبحان مغيّر الأحوال .

سألني واحد من اصدقائي عن الأفضل هل القطاع الخاص ام القطاع العام؟ فرددت عليه :

ـ هل السؤال في الأفضلية في الجانب الوظيفي؟

قال :

ـ لا أقصد هذا الأمر ، بمعنى أنك لو خيّرت بين أن تكون موظفا في الدولة ، أو تدير مشروعك الخاص أيهما تفضل؟

اعجبني السؤال جدا فقلت :

ـ لدي تجربة يمكن أن تصفها بالفشل ، أو تصفها بالنجاح فهذا عائد لك ، فقد عملت في بداية حياتي موظفا لدى والدي بالأكل والشرب ، ثم عملت في الميناء (لشركة خاصة) براتب 200 ريال في الشهر ، وحينما التحقت بالمعهد الصحي حصلت على مكافأة شهرية قدرها 210 ريالات وأنا على مقاعد الدراسة ، تضاعف الراتب في الحكومة ، تركت العمل في الحكومة بقرار ذاتي ، وعملت مستثمرا في المقاولات والزراعة ، وفي وقت كنت أحصل على عائد شهري لا يتصور ، وفي وقت آخر كنت أعمل بخسارة ، فاضطررت لأن أعود إلى الحكومة .

ـ استاذي اطلت الجواب ، ولم أعرف الحقيقة والرأي؟

ـ الحقيقة التي لا مفر منها

ـ الحقيقة أن كل قطاع له ايجابياته وسلبياته ، فالوظيفة الحكومية ابن بار ، لكنه لا يعطي الذي يعطيه المشروع الخاص . . والمشروع الخاص كريم لكنه غير آمن ، ويحتاج الى مداراة ومجاملة للحفاظ عليه ، وفي النهاية الإنسان سوف يعمل في المجال الذي يحبه ويتفاعل معه ، ويجد نفسه ومستقبله فيه ، ولكن عليه الطموح والتطلع للأفضل .

ـ 7 ـ

تقاعدت عن العمل الرسمي الحكومي ، وعدت فتحت بعض محلاتي التي كانت شبه مجمدة ، ولكوني اجبرت على أن أدخل المحاكم في فتره من الفترات نتيجة لشكوى قادها أحدهم ضدي ، واتهمني بالسرقة ، والانتهازية ، ولكن رد الله كيده في نحره ، وكسبت الدعوى ، وهذا ما فتح لي الباب بعدها أن أتعلم النظم والتعليمات واللوائح القانونية ، واقف عند كتب مثل كتاب "لائحة المرافعات الشرعية" و"لائحة الدعوة الجزائية" و"دفع الدعوى الجزائية اثناء المحاكمة" ، و"القواعد الشرعية" ، هذا الأمر أثار في ذهني فكرة أن أتبنى بعض القضايا ، والتداعي حولها ، فما كان مني إلا أن تعلّمت فنون التداعي ، وأساليبها من بعض المحامين المعروفين ، مستفيدا من بند في النظام يجيز لكل مواطن أن يأخذ ثلاث قضايا يترافع عنها ، فصرت أدرس نظام التداعي على مستوى المملكة ، وأتابع الجديد ، وأجلس مع بعض ذوي الخبرة ، حتى امتهنتها "صنعة اضافية" .

إن الظروف هنا اقحمتني في قطاع هام ، وجدت فيه نفسي ، ولأني لا أقدم على عمل الا بعد أن آخذ قصته واتعلم اسسه ومبادئه ، لذا اشتريت لي عددا من الكتب وصرت اتعرف على وسائل التداعي وسبل حلها . .وكانت أكبر قضية كسبتها هي دعوى أقامها بعض العمال الصيادين على كفيلهم ، وكان عددهم 26 عاملا جميعهم من العمالة الوافدة ، ودعواهم تقول بأنهم لم يستلموا رواتب لمدة ثلاث سنوات ، الأمر الذي يعني بأن يدفع لهم هذا الكفيل 400 ألف ريال ، حينها وبعد مداولات عدة تحدثت في المحكمة حول قاعدة «ما يجري بين العقلاء حجة عليهم» ، حيث أن العائد الذي يحصل عليه الصيادون يقسم بعد كل عملية صيد وهذا معروف بين الصيادين ، فطلبت من القاضي أن يذهب بنفسه الى ميناء الجبيل ويلتقي بالعمالة هناك ويسألهم عن موضوع تعارف الناس عليه بـ"القلاطة" ، وهي قسمة للمال تتم بعد كل عملية صيد ، وأخذته بنفسي الى مرفأ دارين والتقى ببعض

الصيادين ، وثبت له أن هؤلاء العمال المدعين كاذبون حيث أن الحقيقة أنهم يأخذون نصيبهم بـ "القلاطة" ، وبعضهم يأخذها كل اسبوع ، وبعضهم يأخذها كل شهر ، وما أن كسبت هذه القضية ، التي لم اتقاض عليها أي اجر ، حتى فتح الله لي العديد من الأبواب في هذا الجانب ، وصرت اترافع عن العديد من القضايا ، وحينها نجا هذا الكفيل من خسارة ودين يكاد ينقله الى عالم صعب من الناحية المادية .

وبهذا تكون المحاماة هي الصنعة السابعة ،

ـ 9 ـ

تلك هي قصتي مع السبع الصنايع وهي :

1ـ الزراعة التقليدية (النخلة ورعي الماشية) ،

2ـ الميناء (التحميل والتركيب) ،

3ـ العمل الحكومي (الصيدلة) ،

4 ـ المقاولات ،

5 ـ الزراعة الحديثة ،

6 ـ التجارة ،

7 ـ المحاماة

سبع صنايع والبخت ضايع ، تلك مقولة أو مثل شعبي يتكرر دائما ، ويردّده ذوو المهارات فيؤكدون بأنهم يمتلكون كل شيء ولا شيء ، يملكون المهارات لكن الحظ والنصيب يخذلهم ولا يقف معهم ، فتكون السبع صنايع موجودة ، لكن المجال التي تعمل فيها يكاد يكون مفقودا .

لقد خضت سبع الصنايع ، زاولت زراعة النخيل ورعاية الماشية ، ودخلت عالم الصيدلة كوظيفية حكومية ، والتحقت بالمقاولات وعشت في عالمها سنوات ، واستثمرت جزءا أموالي في الزراعة ، ثم صرت تاجرا فاشلا ، وحط بي المقام لأن أصبح محاميا ، بين كل صنعة وصنعة هناك تجربة وقصة ، فتارة امارس صنعة افقد خلالها شيئا كأن افقد بعض سعادتي وراحتي وصداقاتي ، أو أفقد خلالها مالي وجهدي وعرقي ، ولا أنال مقابل ذلك الا الخيبة والخسران . .

معاناة عديدة ، بعضها جاءت مع بعضها ، وبعضها جاءت بمفردها ، بعضها اقبلتُ عليها مرغما ، ولدت ووجدتني فيها ، اتعامل معها ، وبعضها فرضتها علي ظروف الحياة وتقلباتها ، وبعضها كانت خيارا لمواجهة ظرف معين ، انتهت بانتهاء ظرفها ، بعضها تجارب ناجحة بالكامل ، والبعض الآخر ناجحة بشكل مؤقت ونسبي ، وبعضها فاشلة بالكامل . . وفي كل تجربة كنت ادخلها لم أقبل عليها الا عن معرفة وتجربة وكان شعاري العلم والمعرفة ، والتجربة والممارسة .

وبعد كل هذا التجارب والصنايع السبع ، اراني اقف حائرا امام تطورات الزمن وتقلباته وغدره ونكباته ، لا أدري حقا أين ستذهب بي سفينة هذه الحياة ، فكلها بحر متلاطم الأمواج مليء بالأخطار ، يضرب بعضه بعضا ، ينسف كل ما يلقاه في طريقه . . ولكنها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها ، ولكن هل يمكن القول بأني صاحب السبع صنايع والبخت ضائع؟! .

سؤال طالما تكرّر على مسامعي ، وأنا استعرض تلك المواقف ، واسرد تلك الذكريات ، لأقول بأن التفاؤل سلاح الناجحين ، كما أن التشاؤم هو سلاح الفاشلين الضائعين . . لذا قد أضعني ضمن قائمة الناجحين لأني لم أيأس ولم أقبل بغزو جيش القنوط الذي لا يرحم أحدا ، ويدخل صاحبه خانة الكفر بالله جلّ شأنه ، فاليائس القانط قد يصبح كافرا فيخسر الدنيا والآخرة بينما أنا ـ ورغم قساوة التجربة ـ لم أقبل لنفسي بالدخول ضمن قائمة اليائسين البائسين .

قد أكون ناجحا ، لأني لم أظلم أحدا ، ولم أسدد سهاما من الحقـــــــــد والحسد والغيرة ، تجاه من كانوا في وضع أظنهم سعداء في راحة ، وأن الدنيا لم تطلهم ولم تأخذهم بغدرها وجورها ، لذلك حينما رفض والدي أن التحق بالمدرسة لم يكن بوسعي أن احقد عليه ، وحينما رأيت كافة الأطفال ممن هم في سنّي أو أو أقل أو أكثر يمرحون ويسرحون خلال مسيرهم إلى المدرسة ، حينما رأيت هذا الوضع لم أصب جام غضبي على أحد ، فأنا لم أغضب قط ، بل كنت في وضع القابل بكل شيء يقدره المولى جل شأنه .

وربما اعتبرت نفسي من الموفّقين ، كوني تعاملت مع صعوبات الحياة بموضوعية وبهدوء ، وبلغة الباحث عن حل ، وهدفي أن أكون ضمن قائمة الناجحين العظماء ، رغم أن الذي طالني لا يعد شيئا مقارنة بما طالهم . .

وأراني شاكرا للمولى جل شأنه اولا ، ولمن ساعدني ووقف معي ، وأشكر الظروف التي خدمتني إذ اختصرت علي الزمن ودخلت مجالات لا يدخلها أحد الا بعد سنوات ليست قليلة ، فقد قصدت الصيدلة والمقاولات والزراعة والمحاماة ، وكلها قطاعات لا يمكن التعاطي معها الا بوسيلة واحدة وهي العلم ثم العلم ثم العلم ، لذلك لم أدخل مجالا لم أتعلمه واقرأه واعرف تفاصيله ، لذلك قمت بمقاومة أي خطأ في هذا الشأن ، لكن الحياة والظروف العامة ـ أحيانا ـ لا تخدم صاحبها ، ولاتقف معه ، بل قد تقف ضده ، وتسعى

كي تحطمه ، والناجح هوالذي يتمكن من تذليل الصعاب ، لذلك اعترف بأني في بعض مواقف الحياة لم أكن ناجحا ، ولا استحق بطاقة شكر ، ولكن عزائي أني اجتهدت ولا يلام المرء بعد الاجتهاد

سبع صنائع ، نعم سبع صنائع اخذتها وتعلمتها من جامعة الحياة ، لم اضع نفسي مكان "أنا الأعلى" ، لكنّي صرت تلميذا لمن هم اعلم من ، فلم أكن أتورع لأن أكون تلميذا لواحد من عمالتي ومن هم على كفالتي ، وقاعدتي في الحياة هي أن تكون جاهلا لبعض الوقت خير من أن تكون جهولا طول الوقت ، وذل ساعة في طلب العلم خير من ذل ساعات من الجهل ، لذلك ادرت عملي بعد علمي بتفاصيل الموضوع ، سواء في المقاولات أو في الزراعة أو في المحاماة

سبع صنائع ، متعددة متنوعة مختلفة ، عنوانها سعيد التاروتي ، الذين لا يجزم أنه "سعيد" بما في السعادة من معنى ، ولا "تاروتي" بالكامل ، هذا ما قلته في البداية ، واقوله في النهاية .

تلك قصة السبع صنائع ، ولكن هل صحيح أن صاحب السبع صنائع بخته (حظه) ضائع؟ يمكن!!!